

محمد المبارك

الفكر الإسلامي الحديث
في مواجهة الأفكار الغربية

دار الفكر

بيروت

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في الصفحات التالية من هذا الكتاب الذي لم أحاول أن أجعله كتاباً تقليدياً ينقسم إلى فصول وأبواب ، أو كتاباً مدرسياً يسير على منهج تعليمي متدرج أعرض من غير ترتيب مصنوع ولا خطة متكلفة المشكلة التي هي أم مشكلاتنا والتي هي مرجع المشكلات التي نصادفها اليوم في ميدان الفكر والسياسة والاقتصاد والأدب ، وهي مشكلة واحدة ولكن لها جوانب وصور مختلفة أقدمها للقارئ لا على أنها وجهة نظر فحسب بل على أنها تجربة فكرية ، وقد تكون مشابهة أو مخالفة لتجربة آخرين مثلي ، وعلى القارئ أن يستعرض هذه التجارب المختلفة وأن يوازن ويفاضل ويختار .

وسيعرف القارئ قصة هذه التجربة في الصفحات الأولى التي تتلو هذه المقدمة ، وهي كما سميتها قصة جيل ، ولكنها أيضاً قصتي وقصة أمثالي في البلاد العربية والإسلامية ، وإني بانتظار اليوم الذي أبسط فيه ما أوجزت من هذه القصة ولكنني ألقيا الآن كما خطها القلم هكذا على إيجازها لأعرف مدى تجاوب القراء معها وتفتحهم لها ومواقفهم المختلفة منها

راجياً من الله تسديد الخطى وتوفيق الجليل الصاعد للأخذ بخير
ما أنتبه الجيل الذي سبقه وتصحيح ما في مسيره من انحراف
وفي عمله من خطأ ليكون انتقاله من طور إلى طور أفضل ،
فطالما كان التطور تردياً والتغير تفسخاً والتقدم تأخراً ،
وإلى تفاريه الكريم قصتي وقصة الجيل .

١ شوال ١٣٨٧
الحرم المرقوم ١٩٦٨ / ١ / ١

محمد المبارك

عضو الجمع العلمي العربي بدمشق

قصة جيل

إن جيلاً المحضرم ، الذي تفتتح رعيه حين كان شبح الحرب العالمية الأولى يولي ثار كآ وراءه مساً ترك من آثار ، قد شهد لبحرنة عميقة الغور بعيدة المدى متنوعة الآفاق . فقد ظهرت بعد الحرب نتائجها ونتائج ما تقدمها من تخفضات وإرهاصات وتفاعلات بين الشرق والغرب .

لقد شهد جيلنا هذا - ولا سيما من كان منه في مواقع تسمح له بالرؤية الواضحة والمشاركة - الممارك وضروب التطور والتبدل في مبادئ الثقافة والسياسة ، وفي شتى البيئات الحضرية والريفية .

لقد شهدنا عهداً بدبر وعهداً يُقبل ، وحركة مستمرة أمامنا ووراءنا ، وكانت تطرق مسامعنا ، مذ وعينا ، أفاظ (النهضة) و (التقدم) قبل أن ندرك حقيقة معانيها .

نشأنا على مشاهد الصراع بين الفصحى والعامية ، بين العربية والشعبوية الفرعونية والاقليمية ، بين الدين واللا دين ،

بين الاستقلال والاستعمار . شهدنا - وكنا تلاميذ في مقاعد
الدرس - كل حملات التشكيك في 'مثلنا وقيمنا وحضارتنا
وديننا ولغتنا ، والمحاولات القوية التي تغذيها مراكز خارجية
سياسية وعلمية لزعزعتنا عن مواقع دفاعنا . ثم شهدنا كذلك
انحسار كثير من هذه الثورات والموجات حين ذهب منها
الزبد وبقي ما ينفع الناس ؛ وتراجع كثير من أئمة الهدم
والتقويض ، عن اقتناع أو عن مصلحة ، عن الخط الذي
يسرون فيه .

لقد استعان مجتمعنا العربي خاصة والإسلامي عامة ، بدم
أجنبي غريب ليتحرك وينهض ، فتحرك ونهض ، ولكن
بنبضات ذلك الدم الغريب . فكانت نهضة ولكنها اقترنت
بآفات جديدة لم تكن معروفة ، فتعاقبت علينا ، بعد لقاء
الشرق بالغرب خلال قرنين من الزمن ، ألوان من المذاهب
والفلسفات فأخذنا من كل منها بطرف .

عرف مجتمعنا أولاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،
عن طريق الدولة العثمانية ومصر ، مدنية فرنسا وكانت في
أوج مجدها ، تلك المدنية التي تعتبر الفرد الانساني الوحدة
الأساسية والقيمة العليا ، وأساس السياسة والاقتصاد
والأخلاق ، وكذلك كانت المدنية الانكليزية التي كان لها
كذلك تأثيرها في المجتمع الإسلامي ، وهكذا عرفنا النظام
الديمقراطي النيابي في مجال السياسة والنظام الرأسمالي الحر

في المجال الاقتصادي وأخذنا بكثير من أفكارها ومفاهيمها في مجال الأخلاق والدين فقد انتهت ظروف التاريخ بفرنسا إلى العلمانية أو فصل الدين عن الدولة ونظامها، وإلى الحرية الفردية في مجال الأخلاق دون التزام القيم الخلقية المتعارف عليها . وكانت الرابطة التي تنظم أفراد المجتمع كله فيها هي (الوطنية) وعليها تدور كل المعاني العامة والحركات الاجتماعية والسياسة الخارجية .

ثم جاءت من بعد ذلك موجة أخرى في القرن التاسع عشر بتأثير الثقافة الألمانية التي جاءتنا بطريق مباشر أو غير مباشر في عهد الدولة العثمانية التي اتصلت يومئذ اتصالاً وثيقاً بألمانيا تجارياً وثقافياً وعسكرياً . والأمة في هذه الثقافة هي الأساس لا الفرد ، فهي المتصفة بالبقاء والاستمرار ، وخصائصها المشتركة المتوارثة هي قوام المجتمع ، وهي الثروة التي تحرص على بقائها ، وليست الدساتير والقوانين إلا ترجمة لها وتعبيراً عنها ، وعلى الفرد أن يتقيد في سلوكه بالمثل المستقاة منها . وهكذا حلت (القومية) - سواء اتخذت مفهوماً ثقافياً أم عصرياً - محل (الوطنية) أو انضافت إليها واقتترنت بها وأخذت توصف بها الأحزاب والحركات والنهضات كما يوصف بها الاقتصاد والتربية والسياسة بعد أن كانت توصف هذه كلها قبل ذلك بالوطنية . وغدت (المصلحة القومية) أساس التشريع والسياسة لا (الحرية الفردية) بل أصبح الفرد

مقيداً بقيود هذه المصلحة القومية . وقد تأثر العرب والأتراك
معاً بهذا اللون من التفكير .

ثم جاءت موجة ثالثة هي (الاشتراكية) ، ولا نغني بها
اشتراكية « فوريه » و « سان سيمون » ، وأمثالهما ، وإنما نغني
(الماركسية) فتأثر مجتمعنا بها من الناحيتين الاقتصادية
والسياسية بل من الناحية الفكرية والعقدية . وقد وفدت
هذه الفكرة بادية الأمر مع الثقافة الفرنسية ذات الألوان
المتعددة ، وذلك عن طريق البعثات الثقافية والكتب من بعد
الحرب العالمية الأولى . ولكن تأثير الاشتراكية بقي ضعيفاً
في مجتمعنا الإسلامي حتى الحرب العالمية الثانية ؛ فلما انقضت
هذه الحرب واشتدت وطأة الاستعمار الغربي انتهزت الدولة
الاشتراكية الكبرى الظافرة في الحرب هذه الفرصة وفتحت
للشرق الإسلامي ذراعيها وأبدت عواطف الود وبادرت
للمساعدة في بيع السلاح والوقوف مع بعض الحكومات العربية
والإسلامية في المواقف الدولية التي كانت في مصلحتها ،
واستثمر أصحاب هذه الفكرة ودعاتها من أبناء المجتمع
الإسلامي هذه المواقف وظروف الحكم السيئة في كل بلد للدعوة
إلى مذهب يزعمون انه المنقذ للشعب من هذه المساوىء وتلك
المظالم وأولئك الحكام .

إن هذه التيارات والنزعات التي وصفناها لم تدخل المجتمع
الإسلامي دخول الواغل الطفيلي ولا دخول العدو القاهر ولكن

دخول النصارى المنجد والمستنصر الملعوف ودخول الطعام إلى
بطن الجائع دون النظر في نوع الطعام .

ذلك أن كل فكرة أو فلسفة منها جاءت والظروف لها
مواتية والنفوس لقبولها مستعدة فالوطنية حملت إلينا حين كنا
في حاجة إلى الشورى في الحكم والحرية الفردية في المجال
السياسي وإلى الارتباط بالأرض والجماعة التي ننتسب إليها بعد
أن تجزأنا إلى أفراد . والفكرة القومية جاءت في وقت كان
العرب فيه يفتشون عن سبب مسوغ لانفصالهم عن الأتراك
الذين يشتركون معهم في الدين وفي عهد كان فيه حزب الاتحاد
والترقي ثم تركيا الفتاة يحاول أن يجعل الحكم حكم أتراك
لعرب لا حكماً إسلامياً تشترك فيه عدة شعوب على أساس
المساواة فكان الاتجاه القومي عند العرب رد فعل غذته
عوامل خارجية واستثمرته لمصلحتها ثم وضع في صيغة فلسفية
معينة بدوافع أخرى أيضاً . وكذلك يمكن أن نقول عن
الاشتراكية فقد جاءت في ظروف تطلع فيها الناس إلى نيل
حقوقهم الاقتصادية وفي زمن كانت مصلحة الشعب العربي
وبعض الشعوب الإسلامية من وجهة السياسة الدولية في
الجانب الذي تقف فيه الدول الاشتراكية ولكن هذا شيء
والأخذ بالفلسفة الماركسية شيء آخر .

والخلاصة أن هذه التيارات انتهزت فرصاً مناسبة وظروفاً
اجتماعية مواتية واستفادت كذلك من فرصة ذهبية بالنسبة

اليها هي أن الاسلام كان قد انحسر خلال عصور الاضططاط
عن الساحة العامة وحالت بين مفاهيمه الاجتماعية السامية
ومعالمه الرئيسية وبين جمهور الشعب حواجز كثيفة من الجهل
والتشويه والشوائب الغريبة عنه وتقلص في نفوس المسلمين
وضمر حتى عاد ديناً بالمعنى الأوروبي أي مجموعة عقائد تتعلق
بما وراء هذه الدنيا ومجموع شعائر تعبدية . وكانت معانيه
النضالية لتحرير البشر ، والاجتماعية لاقامة مجتمع عادل سعيد ،
قد طمست أو كادت أو جعلت على الأقل في المرتبة الثانية
بعيدة عن الحياة .

وحين بدأ الاسلام يستيقظ ويستعيد قوته وصفاءه ومعانيه
العميقة ويمتد إلى الساحة الاجتماعية وأخذت نبتته تظهر وتنمو
لتحل محل التيارات الدخيلة في علاج المشكلات كانت تلك
التيارات قد اشتدت واستحكم أمرها وصلب عودها وأصبح
التغلب عليها أمراً صعباً يحتاج إلى فترة غير قصيرة من الزمن .

وهكذا توالى تلك التيارات الفكرية وتعاقت ثم تلاقت
وتداخلت واستقرت في مجتمعنا الإسلامي ابتداء من تيار
(الوطنية) الذي يعتمد على الفرد وحرية إلى التيار (القومي)
الذي يقدر الأمة ويتعصب للجنس والقوم إلى التيار
(الاشتراكي) الذي يستهدف اقتصادياً تأمين وسائل الانتاج
وإلغاء الملكية الفردية وسياسياً موالاة المعسكر الاشتراكي
وعقدياً نشر المذهب المادي الذي يعتبر الوجود مادة تتطور

بذاتها بموجب قانون التضاد ويعتبر المثل الخلقية والأديان نتاجاً من ثمرات التطور الاجتماعي بل من أسوأ هذه الثمرات في زعمه وأمرها طعماً .

وعلى أساس هذه الفلسفات والمذاهب تكونت في البلاد العربية والإسلامية كثير من الهيئات السياسية والتيارات الفكرية ونشأ عن ذلك تعدد الفلسفات والعقائد وتشتت المجتمع وفقدان الصعيد المشترك الذي يمكن الالتقاء عليه في داخل كل شعب من الشعوب الإسلامية ، وبين هذه الشعوب الإسلامية ، بل فقدان الحد الأدنى الضروري من الانسجام الذي به تتماسك الأمة الواحدة ، وبه تصبح أمة ، وبدونه تصبح مجموعة أفراد وجماعات .

وبينا يجري هذا كله في البيئات المثقفة والسياسية من المجتمع ، تبقى الجماهرة الكبرى من الشعب مغلصة لفكرة تأصلت فيها ورسخت خلال قرون طويلة وعاشت معها وكونت أكثر أفكارها ومفاهيمها وعاداتها ونظمها ومثلها العليا وقيمها الأخلاقية وهي الإسلام مهما يكن الشكل الذي فهمت به هذا الإسلام ، وإن كانت تأثرت بتلك المذاهب الجديدة تأثراً سطحياً محدوداً يزداد قوة مع الزمن .

ولكن الإسلام بمبادئه النظرية وأشكاله الحضارية عملت فيه - كما قلنا - عوامل التبديل والتغيير وعوامل الانحراف فشوهت بعض التشويه صورته وأنقصت بعض جوانبه وبدلت

معاييره وتعطلت بسبب ذلك إلى حد كبير فعاليتها ، ولم يعد يعطي الثمار التي كان يعطيها أيام نقائه وكاله ، ولكنه مع ذلك عميق الجذور راسخها وثيق الارتباط بنفوس الجماهير في الشعوب الإسلامية

ولئن استطاعت العواطف المختزنة وبواقي الأفكار الحية من هذا الإسلام أن تمد حركة مقاومة الاستعمار بروح قوية وتمد الثورات بمدد شعبي قوي ، كما وقع في حرب الأمير عبد القادر الجزائري والأمير محمد عبدالكريم الخطابي والسنوسيين في ليبيا وسعيد شامل في قفقاسيا ، وفي ثورات مسلمي الأفغان والهند على الانكليز ، وفي سورية ومصر وفلسطين وعمان وغيرها ، فإنها لم تستطع أن تواجه الغزو الفكري والاقتصادي لما آل إليه حال هذه الروح الإسلامية من الضعف والتخلف وفقدان الحيوية الفكرية والعملية والانحطاط عن مستواها الحضاري السابق ، لذلك استعان الشرق الإسلامي بسلاح عدوه ، وتداوى بما وجده في صيدليته وأقبل على ما عنده - على ما فيه من خير أو شر ومن فضيلة أو رذيلة - لأنه وجد فيه عدة القوي ، وعظم ذلك في نفسه لعظم عدوه في نفسه ، فكان يجد كل ما يأتي من قبله مصدر قوة وسبب مجد وعظمة ، وذلك لأن النفوس تحكم على الأشياء المقترنة المتلازمة حكماً واحداً ولو لم تكن هذه كذلك ، بحكم القانون النفسي المعروف قانون تداعي الأفكار . وهكذا تم الغزو والنفوذ الفكري الذي لم يزل يزول الاستعمار العسكري لأنه اتخذ من أبناء

البلاد أنفسهم دعاة له ودعائم يستند إليها .

وكان الإسلام في خلال ذلك ينهض ويتحرك ، ولكن كان عليه وعلى أبنائه ودعائه أن يضطلعوا بأمرين : أحدهما تخليصه مما شابه وشوّهه خلال عصور الانحطاط والتخلف ، وثانيهما : الوقوف أمام تحدي الغرب وعقائده وفلسفاته ونظمه ، وسارت العمليتان في آن واحد ، فكان الجهد مبذولاً لإزالة ما غشي عليه وعلق به من الشوائب وتصحيح المفاهيم وإعادة النسب والمقاييس إلى أصلها ، وإبراز ما أغفل من أقسامه . وكانت هذه العملية شاقة طويلة لأنها تقتضي تغيير عقلية تكوّنت في قرون ، وعواطف ربيت في زمن طويل ، ولا تزال هذه العملية مستمرة والحاجة إليها قائمة . أما العملية الثانية فقد بدأت في أول أمرها بالموازنة والمقابلة والبحث عما في الإسلام مما يماثل أفكار الحضارة الغربية ونظمها ومر المجتمع بمرحلة التوفيق بين الإسلام والأفكار الغربية . وفي هذه المرحلة ألبست الأفكار الغربية أحياناً لباس الإسلام ليسهل مرورها واجتيازها إلى المجتمع الإسلامي ، وألبس الإسلام أحياناً أخرى لباس الأفكار الغربية ^(١) ليسهل على

(١) إن التفريق بين العمليتين هام جداً - وإن كان دقيقاً - من حيث الحكم على القائمين بهما فيينا يعمل القائمون بالعملية الأولى عملاً يراد به تقييد المسلمين إلى الفكر الغربي وكثيراً ما يساعد على ذلك بعض أهل الغرب من رجال الفكر أو السياسة يحاول الفريق الآخر بدافع الاخلاص للإسلام والحرص على نشر دعوته تقريبه إلى العقول . هذا بصرف النظر عما يمكن أن يقع في عملهم من خطأ أو صواب .

العقول التي ألفت التفكير الغربي واتخذت أساليبه أن تستسيغه وتقبله ، فكانت هذه المرحلة جسراً يصل بين الإسلام والفكر الغربي ، فكان فيها الصحيح والزائف والأصيل والدخيل . وكان لهذه المرحلة فوائدها ومضارها ، فكانت سبيلاً للكشف عن كثير من جوانب عظمة الإسلام وجلاء حكمة أحكامه ، كما كانت أحياناً طريقاً للانحراف والتعسف في تأويل نصوصه وإلباسه غير ثوبه وإقحام أفكار غريبة عليه . ولذلك كان لا بد من أن تعقبها مرحلة ثالثة تزيل هذا التلغيق بين فكرتين وعقيدتين ونظامين مختلفين مع الاحتفاظ بمستوى الذي بلغته نهضة الإسلام الحديثة . وهذه المرحلة الأخيرة تتسم بالأصالة وتتجلى فيها ذاتية الإسلام وخصائصه المميزة . ومن أجل هذا نفسه ، وبسبب التجربة التي مرت بها النهضة تتصف هذه المرحلة بالعمق الذي اكتسبته خلال البحث الجاد عن الذات ، ذلك البحث الذي اقتضى معرفة الفكر الغربي بخصائصه ، والفكر الإسلامي كذلك وما بينهما من فروق جلية أو دقيقة .

ولكن الفكر الإسلامي ، إذ كان عليه أن يقوم بالعمليتين عملية التحرر من تشويه عصور الانحطاط وعملية الوقوف أمام الفكر الغربي - سواء عن طريق التوفيق أو المعارضة - وإعادة النظر في صياغة نفسه صياغة تتناسب مع الحياة الحاضرة ، كان عليه في الوقت نفسه أن يدخل في صراع داخلي في المجتمع الإسلامي نفسه مع التيارات التي كونها

الفكر الغربي ، والتي تجهل الإسلام بل تحمل عنه صورة مشوهة مزيفة على اختلاف مواقفها منه ^(١) .

(١) وهي مواقف مختلفة فالفكرة الوطنية ، بناء على فلسفتها الفردية ، ترى فيه أمراً شخصياً متروكاً للفرد نفسه ولذلك كان على الدولة أن تقف منه موقف الحياد فلا تؤيده وتدعمه ولا تحاربه وهذه هي النزعة العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة .

والفكرة القومية اذا كانت مجرد فكرة سياسية فموقفها يشابه موقف الفكرة الوطنية . وأما اذا كانت تعتبر القومية عقيدة فهي ترى في الاسلام مرحلة من مراحل القومية العربية وتعبيراً عن مثلها في طور من أطوارها فهو (تراث) و (ماضي) ولك أن تصفه بعد ذلك بما شئت من صفات المدح والتعجيد بهذا الاعتبار على الا تتجاوز به هذا التقويم التاريخي المرحلي . وظاهر هذه الأفكار التعصب للعروبة وباطنها اجتثاث أصولها وتفريغ مضمونها وفصلها عن تاريخها سواء أكان المعبون عن هذه الفكرة شعوبيين عن وعي وتصميم أم كانوا مخدوعين بتأثير ثقافتهم الخاصة بهذه الفلسفة المدخولة ومن أصحاب هذه الفكرة ساطع الحصري وعلي ناصر الدين ، واكثر دعاة الحركات القومية وكتابها .

وأما الفكرة الاشتراكية الماركسية فموقفها في يناييعها الأصلية واضح لا لبس فيه فالدين في نظر ماركس (أفينون الشعوب) ولذلك كانت محاربة الدين على حد قول لينين « ألف باء كل مذهب مادي وبالتالي الماركسية ولكنها لا تقف عند هذا الحد » ويقول أيضاً : « ان دعايتنا تشتمل بالضرورة على نشر الاتحاد » ويقول أيضاً : « يجب أن يكون الماركسي مادياً أي عدواً للدين ولكنه مادي جذلي أي يستهدف النضال ضد الدين لا النضال النظري المجرد ولكن على صعيد النضال الطبقي ، البروليتاريا العدد ٥٥ / ١٣ / ٥ / ١٩٠٩ والحيلة الجديدة العدد ٢٨ / ٣ / ١١ / ١٩٠٥ » وتفسير الدين نفسه في الماركسية يحدد موقفها منه فهو مظهر عجز الانسان الابتدائي أمام الطبيعة وهو في زعمها نقيض العلم وفلسفة موضوعة لمصلحة الطبقة المستغلة .

إن أهم ما يتوقف عليه حل مشكلاتنا والخروج من
الأزمات الماثلة في حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية
والاقتصادية وأخطر ما يتوقف عليه كياننا ونهضتنا وخلصنا
هو الإسراع في تصفية مرحلة التلقيق والتبعية وتعميم وعي
المرحلة الذاتية هذه في جماهير الشعوب الإسلامية وتعميق هذا
الوعي جهد الطاقة في الأوساط الخاصة. وإذا تم ذلك فستنهار
جميع النظم العقديّة والفكرية والاجتماعية السياسية والاقتصادية
والفنية المتصفة بالتقليد والتبعية، وستنهار أصنامها وتلساقط
شعاراتها أمام وعي الجماهير المسلمة لذاتية الإسلام في هذه
المرحلة الجديدة، وستنحل بذلك مشكلات كانت مستعصية
وتتفرج أزمات لم يجد الناس لها مخرجاً، وسيجد الشعب
العربي يومئذ وحدته الضائعة سواء أَرْضِي الحُكَّام أم لم يَرْضُوا
وستقف معه ومن حوله الشعوب المؤمنة بالإسلام إيماناً واعياً
شاملاً أمام المعسكرين العالمين الديمقراطي الغربي والاشتراكي
وأمام حضارتهما المادية المشتركة متحدية على مستوى الأنداد.
ولن يكون هذا العالم الإسلامي الجديد معسكراً ثالثاً أبداً
لأنه لا يؤمن بالمعسكرات المغلقة المتصارعة ولكنه سيكون
صعيد الحضارة الإنسانية المرقبة المفتوح للإنسانية كلها

→ ان هذه المواقف الثلاثة المختلفة أملاها جهل الاسلام ومعرفته معرفة
سطحية ومشوهة وقياسه على غيره من الأديان والاستسلام لتلك الفلسفات
والمذاهب المذكورة والانحصار الضيق التعصب في اطارها والانفلاق دون
غيرها من النظرات .

وستكون قوة التقدم الآلي وسائر مكاسب الحضارة المادية
خادمة لهذه الحضارة لا موجهة لها .

يجب أن تزول نهائياً من الأذهان تلك الصورة المزورة التي
يسودها الاستسلام والتواكل والسلبية ، والتي يقدمها -
على أنها هي الإسلام أو يظنها كذلك - بعض الأدباء والساسة .
فإن مجرد تقديم هذه الصورة المنقولة عن عصور الانحطاط
الماضي على أنها هي الإسلام يحلل صاحبها بعار الجهل وفضيخته ،
أو يكشف مستور حقه وضمينته على الإسلام فهو أحد رجلين
صديق جاهل أو عدو ماكر حاقد .

ان من أولى مهمات حملة الفكر الإسلامي في هذه الفترة من
حياتنا الكشف عن ذاتية الإسلام وتحرير المجتمع الإسلامي من
التبعية الفكرية من جهة ومن التلفيق من جهة أخرى بغية
تصفية هذه المرحلة . فإنهم قد عانوا هم أنفسهم هذه التجربة
ومروا غالباً بهذه المراحل وكانت مهمة سابقهم من رواد الفكر
الإسلامي في الجيل الماضي بحكم ظروف التاريخ مهمة التوفيق ،
فعبثوا لهم الطريق ليستقبلوا مرحلة جديدة ، هي مرحلة
التحرر من التبعية والتلفيق سلباً وإثبات الذاتية إيجابياً . لقد
تلمذ حملة الفكر الإسلامي في المرحلة الأخيرة ، على سلفهم من
أمثال الأفغاني ومحمد عبده وفريد وجدي وشكيب أرسلان
وعبد العزيز شوايش وأمثالهم ، لا ليكونوا صورة عنهم بل
ليكملوا ما بدأوا به وليتجاوزوا الهدف الذي وصلوا إليه بل

ليصححوا أحياناً ويسددوا وللتاريخ أن يكشف عن قبة
عمل أولئك السابقين من حيث التوفيق في إصابة الهدى
والاخلاص في الغاية والسداد في الخطة كما سيحكم على من بعدم
كذلك .

ان الأبحاث التي سيجدها القاريء في هذا الكتيب تنظمها
الفكرة التي عبرت عنها في هذه المقدمة - فكرة ذاتية الإسلام -
على اختلاف مجالات تطبيقها في الموضوعات المختلفة وهي بالنسبة
الى خطوات سيرتها ، وتجارب فكرية عانيتُها ، خلال عشرات
السنين انتهت بي الى هذه المواقف . فقد أتيح لي أن أعيش
طفولتي في أجواء المجتمع الإسلامي المحافظ في مدينة دمشق وان
انهل في آن واحد في عهد حدائقي من الثقافتين الثقافة المسماة
بالحديث أو العصرية في مدارس الحكومة - الابتدائية
والثانوية ^(١) وكانت يومئذ مقتبسة من المنهج الفرنسي مع غلبة
الروح العربية عليها - وفي حلقات العلماء إذ أتيح لي أن أصاحب
بضع سنوات شيخ علماء الشام يومئذ الشيخ محمد بدر الدين الحسني
المشهور بالمحدث الأكبر ^(٢) وإن أقرأ عليه في خلال الفترة

(١) وذلك ما بين ١٩٢٠ - ١٩٣٢ .

(٢) توفي رحمه الله في صيف عام ١٩٣٥ وكان محيطاً بحوائب الثقافة
الإسلامية كلها حق العلوم المادية منها ولكن شهرته كانت في الحديث وكان
كثير العبادة معتزلاً للناس قليل الكلام لا يشتغل إلا بالعلم والعبادة كثير
الحض على جهاد المستعمرين أيام الفرنسيين يعلن ذلك في دروسه العامة وكان
على صلة ببعض قادة الثورة السورية وكانت له هبة عظيمة عند جمهور
وعند الحكام . (راجع ترجمته في مجلة حضارة الإسلام) .

(١٩٢٦ - ١٩٣٤) في دروس عامة وخاصة الكثير من كتب الثقافة الإسلامية في شق العلوم كالتفسير والحديث وأصول الفقه والفرائض والنحو والمنطق والتصوف والحساب والجبر والهندسة والفلك وهذه العلوم الأخيرة في مصادرها العربية القديمة طبعاً .

كما قبض لي أن أقرأ على والدي رحمه الله ^(١) وكان من أشهر شيوخ اللغة في بلاد الشام في مثل شروح المعلقات ولامية العرب والمقصورة الدريدية ومقامات الحريري وغيرها إلى جانب المذاكرات العلمية المتنوعة . ثم درست الحقوق في الجامعة السورية (١٩٣٢ - ١٩٣٥) وأتيح لي أن أتوسع ، في دراستي الشخصية ، في دراسة الفقه وخاصة على المذهبين الحنفي والمالكي . ثم أتيح لي أن أدرس في جامعة باريس الأدب والاجتماع خلال سنوات ثلاث (١٩٣٥ - ١٩٣٨) فتحت أمامي آفاق الثقافة الغربية التي كنت كذلك ملماً بها ومطلاً عليها . وكنت أحضر إلى جانب ذلك في مختلف ندوات العلم والسياسة في باريس فقد استمعت إلى موريس توريز

(١) هو عبد القادر بن محمد المبارك الجزائري الحسني توفي سنة ١٩٤٥ م وكان رحمه الله لغوياً من الطراز الأول وصاحب ملكة في العربية وراوية على القديم ولا سيما الشعر الجاهلي مولماً بغريب اللغة كما كان واسع الاطلاع على تراجم الرجال بوجه عام والصحابة ورجال السيرة بوجه خاص . (راجع ترجمته في كتاب مكتب عنبر للاستاذ ظافر القاسمي طبع المكتبة الشرقية في بيروت وفي مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٦) .

الزعيم الشيوعي كما استمعت إلى أسقف باريس وخطيبها المشهور
الكردينال فردييه ، وأصفيت إلى بول فاليري الشاعر المشهور
كما أصفيت إلى الكاتب الكبير اندره موروا ، وشهدت روايات
مولير وراسين في المسرح الكلاسيكي كما شهدت تمثيل رواية
الأم لمكسيم جوركي في المسرح الشعبي . وهناك في باريس
عرفت الأمير شكيب أرسلان رحمه الله وجالسته واستمعت
إليه ، كما عرفت عن قرب حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
وبعض كبار رجالهم ، وجمهور العمال الذين كانوا ملتفين
حولهم . فضمت إلى ما كنت أعرفه عن الجزائر - وكنت
متتبعا لأوضاعها - الشيء الكثير عن حركاتها ورجالها .
عدت من باريس في أواخر عام ١٩٣٨ حين كانت الأحداث
تتمخض عن الحرب العالمية الثانية وقضيت خمس سنين في
التدريس في وزارة التربية وسنتين في التفتيش الاختصاصي
وعضوية لجنة التربية والتعليم التي كانت يومئذ اللجنة الفنية
العليا لوزارة التربية وعهد إلي يومئذ بوضع مناهج تدريس
اللغة العربية والدين للمدارس الثانوية^(١) فوضعتها على أسس
تختلف اختلافاً كبيراً في المادتين عما كانت عليه سابقاً ولا
تزال هذه المناهج معمولاً بها بعد أن عدلت بعض التعديلات
خلال هذه المدة .

(١) وكان ذلك إثر جلاء الجيوش الأجنبية ١٩٤٥ وقيام حكومة
وطنية بعد الاستقلال التام قامت بتبديلات أساسية في الخطط والمناهج وفي
الجهاز الفني للتعليم .

ثم انتقلت إلى ميدان آخر هو الميدان السياسي فسلخت فيه إحدى عشرة سنة (١٩٤٧ - ١٩٥٨) كنت خلالها نائباً منتخباً عن مدينة دمشق في ثلاث مجالس نيابية متعاقبة كان أحدها جمعية قاسيسية وضعت دستوراً للبلاد (دستور ١٩٥١) واشتركت خلال ذلك في الوزارة فتوليت وزارة الأشغال العامة والمواصلات (١٩٥٠) ثم وزارة الزراعة (١٩٥١) وأتيح لي في هذا المجال أن أعرف عن كثب مشكلات المجتمع وأن أعرف الهيئات والأحزاب والتيارات المختلفة .

وكنت في الفترة نفسها اشتغل بالتدريس الجامعي بصفة محاضر في كلية الآداب أدرس فقه اللغة والدراسات القرآنية ثم عينت أستاذاً في كلية الشريعة (١٩٥٥) ثم رأيت العزوف عن السياسة والانصراف الكامل للعمل الفكري والجامعي لأسباب كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها وأهمها كثرة التقلبات السياسية ومفاجأتها في سورية والشعور بالحاجة إلى تكوين وعي إسلامي يسبق العمل السياسي ليستند إليه ويستظهر به .

وأتيح لي في المجال الفكري والجامعي أن أعمل في التخطيط الجامعي للدراسات الإسلامية فاشتركت في التخطيط لكلية الشريعة بجامعة دمشق ثم في التخطيط للأزهر بتكليف شخصي من رئيس المجلس التنفيذي (مجلس الوزراء) للجمهورية العربية المتحدة فوضعت تقريراً في أسس التطوير ثم اشتركت

بعد ظهور القانون في وضع خطط كليات الأزهر . (١٩٦٠)
واشتركت بعد ذلك في وضع نظام الجامعة الإسلامية بالمدينة
المنورة وخططها ومناهجها بصفتي عضواً في مجلسها الاستشاري
الأعلى وفي كلية الشريعة في مكة وأخيراً في جامعة أم درمان
الإسلامية في السودان . كما دعيت جامعة طهران في زيارة
لايران فسحت لي المجال للاطلاع على معالم الثقافة الإسلامية
فيها فاطلعت على كلية المعقول والمنقول (أصبحت تسمى الآن كلية
الالهيات والثقافة الإسلامية) وعلى بعض جوانب الثقافة في
الجامعة الإيرانية وأتيح لي كذلك أن أزور الباكستان مرتين
وبورما وقايلند والملايو وسيلان والصومال واتصل بالشعوب
الإسلامية فيها .

وهكذا تهيأت لي الفرصة للاستمرار في البحث والاتصال
بالبعثات الإسلامية المثقفة في عدد من البلدان العربية والإسلامية .

ان هذه التجربة التي أوجزتها للقارىء إنما أردت من
عرضها بيان الصلة بينها وبين أفكاري التي أقدمها له فهي
ليست أفكاراً « باردة » ولدت بين الكتب والأوراق في غرفة
مقفلة ولكنها أفكار عشت في أجوائها الحية ، لا بست حياتي ،
وخامرت عقلي وقلبي ، ونفذت إليّ من خلال هذه النوافذ
المتعددة التي أطلت منها على الحياة والمجتمع والعالم . وإني
أقدم هذه الأبحاث لجمهور المثقفين من أبناء الشعوب الإسلامية
وفي مقدمتها الشعب العربي عسى أن يجد فيها ما يدفعه بقوة

نحو هذه المرحلة الجديدة التي نستقبلها رجاء أن يخلف قادة الفكر والسياسة - الذين يمثلون مرحلة التبعية والذين هم نهاية لمرحلة لا بداية - جيلٌ جديد من القادة يمثلون المرحلة المقبلة (مرحلة التحرر والذاتية) كما خلف أولئك القادة الجيل السابق الذي كان يتصف بالمحافظة على ما كان بخيره وشره . لقد آن ان ينتهي بريق عهد التبعية وشعاراتها ، وان تنتهي فتنتها وغرورها . لقد بدأ هذا البريق يخبو نوره عند أصحابه الأصليين ، وفي ينابيعه ومناجمه ، ولكنه لا يزال يلعب عندنا كالنجم الذي انطفأ ولكن نوره - الذي يحتاج الى زمن ليصل الى الأرض - لا يزال يسري وليس وراءه شيء كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً .

ان انتصارنا في معاركنا مع الصهيونية ومع غزاة الأرض والثروة والفكر من جميع أمم الأرض التي لا تؤمن إلا بالمادة والمنفعة على اختلاف مذاهبها المشتركة في الباطل ان انتصارنا في جميع هذه الميادين في فلسطين وكشمير وعمان والصومال واريتريا وزنجبار وبخارى وطشقند والصين و... و... وكل بلد أظله الإسلام بظله ثم عدت عليه العوادي وآل الحكم فيه لغيره فأصبح محكوماً بعد ان كان حاكماً وغداً أهله تابعين بعد ان كانوا حاكمين . وانتصارنا كذلك في معاركنا في الداخل للتغلب على المظالم والمفاسد وعلى الضعف والتخلف كل ذلك مرهون وموقوف على تحررنا من التبعية الفكرية والسياسية

وتوحدنا على صعيدنا الذاتي حيث تجتمع المثل العليا والمبادئ
السامية وحيث لا يكون الإنسان عبداً لا للكبراء والزعماء
ولا للجماهير والدول ولا لأي أحد يزعم لنفسه انه خليفة الله
في الأرض، ويكون التنظيم الفني بعد ذلك والتصنيع الحديث
والتعبئة المادية بوجه عام قوة لا بد منها لخدمة تلك الغاية
وتحقيقها .

سدد الله خطانا ووفقنا للوصول الى الأهداف الخيرة وجمع
شمئنا عليها لنحقق الخير والسعادة لنا وللإنسانية جمعاء .



نحو حضارة إنسانية

مقاييس الحضارة

يقصد بالحضارة مجموع المعارف العلمية والتشريعات والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعباً أم أكثر .

وكل حضارة من الحضارات هي نتيجة جهود سابقة بذلتها أجيال من البشر خلال عصور عديدة متطاولة، ولكل حضارة صورة ظاهرة هي نتاج الجهود الماضية تجمعت في وقت من الأوقات ، ولها كذلك صورة كامنة هي إمكانياتها التي لم تتحقق بعد ، واتجاهاتها وأهدافها فقد تكون الحضارة في حالتها الحاضرة جميلة رائعة، ولكنها تؤدي باتجاهاتها، وتوصل بدوافعها إلى التريدي والتقهقر والخراب ، وتحمل في ثناياها بذوراً فاسدة لا تبدو في الحاضر نتائجها .

فما هي المقاييس التي نقيس بها صلاح الحضارة أو فسادها
وخيرها أو شرها ونتائجها السعيدة أو المشؤومة ؟

إن من العسير بل من الخطأ أن نقيس من جانب واحد
وبمقياس واحد . وذلك أن غاية الحضارة الإرتفاع بالحياة
الإنسانية ، والحياة الإنسانية معقدة كثيرة الجوانب ، فإن فيها
حياة فكرية عقلية ، وحياة مادية عملية معاشية ، وحياة نفسية
خلقية ، وحياة اجتماعية ، إلى جانب الحياة الفردية .

والحضارة الصالحة الخيرة هي التي ترتفع ، بهذه الجوانب
كلها وتعادل بينها ، فلا يظلم جانب منها جانباً ، ولا ينمو
واحد ويضمّر آخر .

إن الحضارة الصالحة هي التي تفسح المجال لنمو العقل
وتفتحه واكتشافه آفاق الوجود ، فتزيده علماً ومعرفة نافعة ،
وهي التي تزيد من قدرة الإنسان على السيطرة على الطبيعة
ليستثمرها لنفعه بعد أن يتحرر من سلطانها ، فترفع بذلك من
مستوى حياته ، وتحقق له الكثير من رغباته ، وتزيد من
سعادته ، وتسهل أمر معاشه ، وهي التي تمكنه من سيطرته
كذلك على نفسه ، وعلى غرائزه وأهوائه ، وتفسح المجال أمام
نفسه وروحه كما فسحت المجال أمام عقله لترتفع في آفاق
أسمى ولتغير من ابتدائيتها وحيوانيتها ، فتتمي فيه الإيثار
والبذل مكان الأثرة والشح ، وتجعل هدف الإنسان الخير لنفسه
وغيره لا لتحقيق اللذة والاستئثار والوصول إلى المراتب .

والحضارة الصالحة هي التي تزيد من تماسك الأفراد في المجتمع وارتباطهم وتضامنهم وتكافلهم سواء من الوجهة المادية الظاهرة أم من الوجهة النفسية والعاطفية . وذلك بتحقيق المساواة في الفرص والمجالات والعدل في توزيع الحقوق المادية والمعنوية والرحمة في نيل الضعفاء من حق الحياة ما لا ينالونه بقوتهم وجهدهم .

والحضارة الصالحة هي التي تحقق الأهداف المذكورة ارتفاعاً وعلواً ، أي في أعلى درجة ممكنة وتحقيقها انتشاراً واتساعاً ، أي أن تشمل بتحقيقها أكبر عدد من البشر بأن تنتشر في جميع أفراد شعب من الشعوب ، بقدر إمكانياتهم ، وأن تنتشر كذلك في أوسع نطاق ممكن في شعوب الأرض فقد تحقق بعض الحضارات النبوغ الفكري أو المعيشة الرخية ، أو السمو النفسي لطبقة خاصة من الناس ، وتحرم منها طبقات أخرى تستطيع الوصول إليها .

إن الحضارات تختلف كذلك باختلاف ما تضعه من أهداف تريد بلوغها ، وما تؤمن به من مثل ومعتقدات ، فإن الأهداف والمثل والمعتقدات قد تكون فاسدة ، فتتجه بالحضارة نحو الفساد أي نحو الانحطاط الفكري أو المعاشي أو الخلقي أو الاجتماعي .

وان للحضارة دوافع ومحركات هي التي تدفع الناس إلى بلوغ الأهداف ، وتحقيق المثل ومثال ذلك أن يكون الناس

مدفوعين إلى التعليم بدافع الحصول على المال ، أو إلى الحرب بدافع الاستيلاء على أرض غيرهم وأموالهم ، أو أن يكونوا مدفوعين إلى ذلك بدافع حب العلم أو إزالة الظلم أو إرضاء الله.

تلك هي مقاييس الحضارة: رفع مستوى العقل والنفس والعيش والتضامن الاجتماعي والشمول ، أو سعة الأفق والارتفاع أو العلو وسمو الأهداف ، وصحة العقائد وصلاحتها وسلامة الدوافع وحسنها .

الحضارة الحديثة

إن الحضارة الحديثة التي نعيش في ظلها في الوقت الحاضر ، هي ثمرة جميع الحضارات التي سبقتها ، وأبرزها اليونانية التي تفتحت فيها البذور الأولى للعقل ، والمسيحية التي ربيت فيها النفس وهذبت العواطف والفرائض ، والإسلامية التي أتمت نمو العقل وفسحت أمامه الآفاق وارتقت بالنفس ضمن شروط الحياة وظروفها ورفعت مستوى التضامن الاجتماعي ووسعت دائرته في شعوب كثيرة .

إن الحضارة الحديثة ورثت تركاً ضخمة غنية فتمتها من بعض جوانبها ولكنها أضعفتها في جوانب أخرى غدت ضامرة هزيلة .

لا شك أن الحضارة الحديثة فتحت للعقل الأبواب وفسحت المجال واسعاً وأكملت في الجانب المادي ما بدأت به الحضارة

العربية الإسلامية وزادت المعلومات البشرية وخاصة في موضوع الطبيعة زيادة هائلة حقاً تدل على عظم الطبيعة وتدل أكثر من ذلك على عظم خالقها واستطاع الانسان بهذه المعلومات أن يسيطر سيطرة كبيرة على جزء من الطبيعة وهو جزء صغير جداً مع ذلك وليس له في هذا إلا فضل اكتشاف أشياء موجودة فتنحدر بذلك تحملاً كبيراً من سلطان الطبيعة عليه .

ورفعت الحضارة الحديثة من مستوى رفاهية الإنسان وهيأت له وسائل الراحة في مأكله ومسكنه وتنقله ومواصلاته ومخبراته ووقايته ونوعت وسائل تلبية رغباته وملذاته وابتكرت له أنواعاً جديدة من الملاذ ويسرت له تحقيقها .

ورفعت الحضارة الحديثة من قوة الارتباط والتضامن الاجتماعي ضمن إطار الشعوب بحيث يتمتع الفرد في داخل المجتمع بشيء كثير من الطمأنينة المادية والضمان الاجتماعي بما سنت من نظم وقوانين وضمنت كثيراً من حقوق الفرد المادية والمعنوية ولكن في نطاق الشعب الواحد والدولة الواحدة . لقد استطاعت الحضارة الحديثة أن تسمو كثيراً في الارتفاع فأوجدت نبغاء عظاماً في الفكر أو بعض نواحيه على الأقل ومرفهين إلى حدود من الرفاهية التي هي أقرب إلى الخيال . ولكن نقص الحضارة الحديثة يبدو في عدة أمور :

أولها : إن دائرة تحقيقها لبعض أهدافها ضيقة فبينما نجد

أن الحق في مجتمع معين كالمجتمع الانكليزي مثلا ، يُضمن إلى حد كبير ، نجد الانكليزي نفسه ينتهك هذا الحق ولا يقره في مجتمع آخر يعتبره دونه . فلا يزال الظلم والفضب والقتل قانوناً سائداً بين الشعوب ، ولا يزال كذلك التعذيب والقمع وسلب الحريات سائداً كذلك في داخل بعض الشعوب الأخرى التي تمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة الحديثة من الوجهة المادية .

وأهم نقائص الحضارة الحديثة أنها لم تبذل أي عناية في تهذيب النفس البشرية . انها لم تستطع أن تخفف ما في الإنسان من أثره وحب للذات واستئثار على غيره ، وطمع في كل لذة وشهوة في الجاه والمنصب وحب الاستعلاء وغير ذلك من الأهواء والعواطف والانفعالات التي تقف في سبيل نمو الحضارة وتضعف البشر وتحول دون ارتقاء النفس البشرية ذاتها .

انها لم تستطع أن تزيد من حساسية الضمير البشري حتى يفضب للحق ويشور على الظلم ويفار على انتهاك الحرمات لم تستطع أن تقوي فيه عاطفة الإيثار والرحمة والنداء والتحرر والاخلاص ولئن كانت حررته إلى حد كبير من سلطان الطبيعة فإنها لم تستطع أن تحرره من نفسه مع أن نفسه جزء من هذه الطبيعة . إنها أخفقت في هذا الميدان أيما اخفاق وبذلك لم تستطع الحضارة الحديثة أن تؤمن التوازن بين الناحية الفكرية والناحية الخلقية فحدث الاختلال والاضطراب .

ان دوافع هذه الحضارة ليست دوافع سليمة مبرأة بل هي في كثير من الأحيان دوافع غير أخلاقية انها كلها دوافع مادية للحصول على علم أكثر وللحصول على انتاج أكثر ورفع الحياة المادية إلى مستوى أعلى وتأمين أكبر عدد من الرغبات التي أكثرها مادي . ليس الانسان أنى كان وأياً كان لونه وجنسه من بني آدم غاية هذه الحضارة وإن كان يستفيد منها وليس الإنسان في جميع جوانبه ونواحيه موضع اهتمامها .

وهكذا ارتقت الحضارة الحديثة ببعض جوانب الحياة الإنسانية وأغفلت جوانب أخرى في غاية الخطورة والقيمة فأدى ذلك إلى اضطراب شديد في حياة الإنسان وجعل سير الحضارة في تطورها متجهاً إلى أهداف ضارة سيئة رغم ما وصلت اليه من سعة في العلم والكشف عن مجاهيل الكون وارتقاء في الصناعة وكثرة الانتاج وارتقاء في مستوى العيش ووسائل الرفاهية . وقد عجزت هذه الحضارة الحديثة عن تهذيب النفس الإنسانية وتحقيق الرابطة الأخوية بين البشر وتعميم مبادئ الحق والعدل في العالم . ولم تسلم في دوافعها من الأهداف المادية الضيقة فلم ترتق في غاياتها كما ارتقت في وسائلها فبقي التفاخر والنكاثر والتزاحم والتغالب على المال والقوة واللذة والملك والسلطان أبرز حوافز الإنسان في عمله وعمله وكسبه ومعاملته .

دور الحضارة الاسلامية :

إن من حسن الحظ ان الحضارة الاسلامية قد تفوقت في

النواحي التي أغفلتها الحضارة الحديثة وأهملتها ذلك أن جوانب
النقص في هذه الحضارة هي نفسها الجوانب الكاملة وغير
المستثمرة في حضارتنا الإسلامية السابقة . وهي كذلك التي لم
تستطع الحضارة الحديثة ان تسبق فيها حضارتنا بل أن تبلغ
مستواها . إن تغيير النفس البشرية وتهذيبها وتوجيهها وشق
الطريق لارتقاءها من أبرز وأخص نتائج حضارتنا . إن توسع
أفق الحضارة في العالم وشمولها لعدد أكبر من الشعوب بتزايد
مستمر وسمو الدوافع المحركة للسير لتتقدم في جميع الآفاق من
خصائص حضارتنا التي لم تسبق في هذا العصر . هذا مع ملاحظة أن
الجوانب التي عنيت بها الحضارة الحديثة وازدهرت فيها لم تكن
مغفلة ولا مهمة في الحضارة الإسلامية بل كانت تأخذ مكانها
إلى جانب النواحي الأخرى بانسجام وتناسق .

فالحضارة الإسلامية أحلت العقل محله وفسحت المجال أمامه
للنظر في ملكوت السموات والأرض والتفكير فيما خلق الله
فيها والبحث عن الحقيقة بطريقة تتصل بالواقع المحسوس وتبدأ
منه وتختلف عن طريقة اليونان الميتافيزيكية الغيبية التي تتجاهل
الواقع في كثير من الأحيان .

هذا وإن ثمة عقبات حالت ولا تزال تحول دون استفادة
الإنسانية من الحضارة الإسلامية التي يمكنها أن تتدارك ما في
الحضارة الحديثة من نقائص وتحفظ وتنمي ما فيها من مكاسب
مأمونة ودون أخذ العرب والشعوب الإسلامية عامة بهذه

الحضارة الإسلامية . ومن أهم هذه العقبات ما أصاب الإسلام في العصور الأخيرة من تشوه في أذهان المسلمين وانحراف عنه في سلوكهم وما شابه من شوائب دخيلة فكانت هذه الصورة المشوهة الناقصة المغايرة للأصل هي التي علقت في أذهان أبناء الجيل من المسلمين وغير المسلمين على أنها هي الإسلام فكانت سبباً لنفورهم وإعراضهم بل لتمردهم أحياناً وثورتهم .

ويضاف الى هذا أنهم واجهوا الحضارة الغربية الحديثة منذ أكثر من قرن ورأوا جوانب القوة فيها دون جوانب النقص والفساد والتردي ففتنوا بها ومالوا اليها واقتبسوا منها ما استطاعوا اقتباسه من أشياء مادية أو أفكار فكان الغزو الفكري الحديث الذي أدخل في المجتمع الاسلامي مذاهب فكرية واجتماعية متعددة كما أحدث تشويهاً جديداً للمفاهيم الاسلامية أفقدها أحياناً بعض أصالتها وألبسها غير ثوبها ، هذه هي المشكلات أو القضايا التي سنبحثها في الفصلين التاليين .

أزمة مجتمعنا وأزمة الإنسانية

إن المجتمع الإسلامي في جميع البلاد الإسلامية قد واجه الحضارة التي حملها إلينا الغرب في العصر الحديث في خلال هذا القرن الماضي وهو يحمل ميراثاً مثقلاً بالضعف قد خمدت في أنفاس الحياة إلا رمقاً قليلاً . وكان الشرق الإسلامي بعيداً كل البعد عن تلك العصور الرائعة التي عرفناها في تاريخ الإسلام في عصوره الزاهرة تتدفق فيها شراب الحياة في حضارة تقوم على الأخلاق والمثل العليا الكريمة ، وتنبسط فيها آفاق الفكر وتتفتح ثمار الثقافة وتتفجر ينابيع العلم وتلقي الأمم والشعوب على عقيدة واحدة إنسانية لأهداف فتعاون في ميادين الثقافة والتجارة وغيرها ويحمي ذلك كله دولة تقوم على أساس الشورى في الحكم والعدالة بين الناس ومسؤولية الحكام ، وتعيش في ظل الحكم الإسلامي الثقافات المختلفة والديانات المتعددة .

لقد تغيرت معالم الإسلام وتطور المجتمع الإسلامي تطوراً يحاكي ما للإسلام من اتجاهات ويخالف ما بني عليه من أسس .

فاستبدل بالصورة الجميلة القوية صورة مشوهة ضعيفة كانت هي الثغرة التي نفذ منها الفساد والمرض .

لقد كانت العقيدة الاسلامية - التي كانت في الصدر الأول إيماناً بالله وحسابه في حياة أخرى وجهاداً في سبيله تدفع الناس الى العمل والجهاد - ففدت جدلاً وكلاماً ، عند الخاصة من المسلمين يتناقشون في النظريات ويتناظرون في الآراء ، ويتعمقون في موضوعات لا تجدي قليلاً أو كثيراً . كاشاهاعند العامة كثير من الاعتقادات الفاسدة والتفكيرات الخرافية المخافية لما أمر الله من النظر في أمرار الكون وأسبابه وعمله . لقد كانت عقيدة التوحيد وإفراد الله بالعبادة طريقاً مباشراً لتحرير البشر من سلطان الآلهة المزيفة والملوك المستبدين والمتمولين العاتين والأقوياء الظالمين . وكانت نقطة انطلاق لتحرير البشر من أنواع من العبوديات الفكرية والاجتماعية والسياسية ومن تسلط بعضهم على بعض ، وإشعار الناس بالمساواة فيما بينهم باعتبار انهم كلهم عباد الله وخلق من خلقه امتازوا بكرامة الآدمية .

لقد كانت عقيدة القضاء والقدر فلسفة إقدام في الحياة (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ، فليس إقدامك على الجهاد ولا دخولك المعركة بقاتل لك اذا لم يأت أجلك . فلا تخف لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضروك فلن يصيبك ضرر اذا لم يرد الله ذلك . فاذا بهذه العقيدة نفسها تصبح فلسفة نواكل

وإحجام : لا تعمل فرزقك يأتبك ولا تجاهد لأن الله ينصره
إذا أراد من غير جهاد ولا حرب . وإذا بالزهد الأعجمي
يطغى على الزهد الإسلامي وإذا بالمسلمين ينكمشون عن البر
في مضمار الحياة كما أمرهم الله أن يسيروا ويعرضون عن الأخذ
بسنن الله في هذا الكون وهذه الحياة وتكون النتيجة أن
يركد النشاط الاقتصادي في بلاد المسلمين - وان يتهبطوا -
ليصبحوا عالة على غيرهم في الصناعة والتجارة ومائر المرافق
الاقتصادية .

لقد كانت العقيدة دافعة إلى الجهاد في سبيل نصره الحق
واقامة العدل في الدنيا ورفع الظلم عن المظلومين وإلى الاستعداد
لهذا الجهاد . فإذا بها تنقلب إلى استسلام مطلق لجرى الحياة .
وبعد أن كانت دافعة إلى الوقوف في وجه الظالمين من الحكام
(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) ، وأمرهم بالمعروف
ونهيهم عن المنكر ، غدت تفهم على أنها قبول لحكمهم ، وركون
إلى استبدادهم . فكان للحكم في صدر الاسلام ضابط من تعاليم
الاسلام يضبطه فيحمله من الطغيان والاستبداد . فأصبح
بالتدريج حكماً استبدادياً لا شورى فيه للمحكوم وللمسؤولية
على الحاكم . وكان الاسلام يتجلى في الحياة الاجتماعية في تشريع
سدهاء العدالة ولحمته الرحمة . وعلى هذا الأساس كانت تفهم
نصوصه من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ففدا نصوصاً جامدة ،
لا ينظر إلا إلى ظاهرها وشكلها مهما كانت نتائج تطبيقها ولو
خالفت روح الشريعة ووقف كل واحد عند نصوص صاغها

من تقدموه ، وأصبح بين الفقيه في كل عصر وبين القرآن
والسنة مصدرى الاسلام الأساسيين طبقة كثيفة من النصوص
تحويل بينه وبينها يقف فيها موقفه من كلام المعصومين والمؤمنين .
فهبط الفقه الاسلامي عن مستواه الرفيع إلى نوع من النصوصية
الضيقة والشكلية الجامدة . وأصبحت الخلافات الجزئية
والاجتهادات الفرعية أساساً لعصبية مذهبية فرقت جمع
المسلمين وحجبتهم عن النظر العميق إلى جوهر الأشياء وإلى
القضايا الرئيسية والمشكلات الكبرى في الحياة وأضعفت
شعورهم بوحدة العالم الاسلامي ووحدة قضايا ومشكلاته .
لقد ضيقت مفاهيم الاسلام الأصلية واختلت القيم والموازن
واختلفت النسب التي أقامها بين نواحي الحياة من عبادة وعمل
وتهذيب للنفس وتحصيل للعلم وكسب للعيش وانفاق للمال
وجهاد في سبيل إقامة العدل بين الناس ، فغلقت على المسلمين
جدلية اليونان في العقيدة ، وصوفية الأعاجم والانعزالية
والتواكل والكسل في الحياة ، واستبداد الأكاسرة ، والقيصرية
في الحكم وشكلية المناطق في الفقه ، والخرافة والجمود في
التفكير ، واستحكمت الخلافات المذهبية ، والعصبية
الخاصة ، وحلت الجزئيات الثانوية محل الاتجاهات العميقة
والمبادئ العامة ، وضعف الوعي الاسلامي العام ، والشعور
بكيان العالم الاسلامي على أنه وحدة متضامنة تنمو وتتسع
لتنشر في العالم بمبادئها الأمن والسلام وفي النفس الانسانية
السعادة والطمأنينة .

وانتقلت الحيوية والحركة في العالم إلى رقعة أخرى من الأرض، وحلت محل الحضارة الإسلامية حضارة أخرى مختلفة عنها في الغرب، والتقى ذلك المجتمع الإسلامي الذي وصفناه بما فيه من ترو و ضعف وتخلخل في العصور الأخيرة بالغرب وحضارته القوية الناشئة الناشطة . وإذا أردنا أن نعرف ما نتج عن هذا الالتقاء من تفاعل وما نجم من نتائج وآثار، وجب علينا أن نعرف خصائص هذه الحضارة الغربية، وصفاتها بمحاسنها ومساوئها .

الحضارة الحديثة (الغربية) :

ان الحضارة الحديثة تكونت في رأينا من عناصر ثلاثة تفاعلت وتمازجت خلال حقبة من الزمن وأنتجت ما نسميه اليوم بالحضارة الغربية أو حضارة العصر الحديث . وهذه العناصر هي :

أولاً - ميراث الحضارة اليونانية والرومانية وهو ميراث تغلب عليه المادية التي تجلت في الفتوحات الاستعمارية ، والديانات الوثنية عند الرومان . وفي الفلسفة اليونانية المستندة إلى العقل والمادة والأدب اليوناني بما فيه من عناصر الصراع والحروب والتنافس والتمتع بالملذات .

ثانياً - الجانب المادي من الحضارة الاسلامية فقد اقتبس الغرب من الحضارة الاسلامية عن طريق الأندلس على الخصوص الناحية المادية من هذه الحضارة كالعلوم المادية التي

ترجمت مؤلفاتها الى اللاتينية ، والتي درسها بعض رجالات أوروبا في مدارس الأندلس وصقلية والحياة الاجتماعية التي كانت راقية من الوجهة المادية كذلك . وأما فلسفة الإسلام أو العقيدة الاسلامية والقيم الاخلاقية التي جاءت بها الحضارة الاسلامية فلم يأخذ الغرب شيئاً منها . وأما ما أخذه من الفلسفة التي سميت اسلامية خطأ ، فهو ذلك التفكير اليوناني الذي امتد أثره ودخل في الحضارة الاسلامية .

ثالثاً - المسيحية وهذه المسيحية التي انتقلت الى الغرب مزيج من تعاليم المسيحية الأولى الاعتقادية والخلقية والفلسفة اليونانية والشعائر الرومانية .

لقد كان من نتائج هذه العناصر تلك النهضة الفكرية التي ظهرت في الغرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر . واختمرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر فكانت الاكتشافات العلمية التي أنتجت الصناعة الآلية الكبرى والرأسمالية والفتوحات الاستعمارية ، وكان من بعدها الثورات الشعبية والانظمة الديمقراطية والتنافس بين القوميات والصراع بين الطبقات والثورات الاشتراكية ، وما رافق ذلك كله من نهضات فكرية واكتشافات علمية واختراعات عملية كثيرة متنوعة . وما صيغت فيه هذه الحضارة أخيراً من مذاهب اجتماعية وسياسية .

لا شك أن حضارة الغرب في العصر الحديث حلقة من

حلقات تاريخ الحضارة البشرية تجمع فيهانتاج الحضارات السابقة في سائر نواحي الحياة . ولكن لها خصائصها وصفاتها ومحاسنها ونقائصها ويمكننا أن نوجزها فيما يلي :

١ - لقد بلغ العقل البشري في ارتقائه مستوى عالياً . وسار في اكتشاف آفاق الكون أشواطاً كبيرة ووصل الى درجة من المعرفة الاختصاصية في كل ناحية من نواحي الكون والطبيعة لا مجال لمقارنتها بالمعرفة التي بلغها في الماضي .

ولكن هذا التقدم الفكري رافقه غرور العقل بنفسه وانتقل الناس من ظلم العقل وكبته في العصور الوسطى الى تقديسه وتأييده وأدى ذلك الى اعلاء القيم العقلية على حساب القيم الخلقية والروحية وتنمية الملكات العقلية دون العناية بالتربية الخلقية والروحية .

٢ - ومن مظاهر الحضارة الحديثة التقدم الصناعي الذي نشأ عن التقدم العلمي . وأدى الى ازدهار الحياة الاقتصادية ونشاط الحياة الصناعية والتجارية والى ارتفاع مستوى المعيشة وارتفاع وسائل الرفاهية . ولكن ذلك أدى في الوقت نفسه الى التنافس على الكسب والصراع بين الطبقات من أجل الثروة وسيطرة حب الرفاهية ولذة العيش على أفراد الناس والى التنافس بين الدول والأقوام على كسب النفوذ وفتح البلدان والاستيلاء على ثرواتها وفتح الأسواق الخارجية لاستهلاك منتجاتها وكان

الاستعمار بحروبه وفضائعه ومآسيه ونحازيه وبسط نفوذ الدول القوية المصنعة والاستهانة بمبادئ الأخلاق والمثل العليا في سبيل الشهوات والمكاسب الفردية والانتصارات القومية وتسلب الشعوب على الشعوب .

٣ - ومن مظاهر الحضارة الحديثة تحرر الشعوب داخلياً من الأنظمة الاستبدادية الجائرة وقيام ثورات وحركات في داخل كثير من البلدان لتقويض تلك الأنظمة وإقامة أنظمة تكفل فيها حرية الناس والمساواة بينهم . وذلك بفصل السلطات وتكوين مجالس يمثل فيها الشعب وإعلان دساتير ينص فيها على حقوق الحاكم والمحكومين وواجباتهم . ولكن هذا كله إنما حدث في داخل الدول الكبيرة وفي الوقت الذي كانت تعلن فيه الحريات والأنظمة الديمقراطية كانت الحروب الاستعمارية في الخارج مستمرة وظلم الشعوب القوية للضعيفة واغتصاب بلادها وثرواتها واستعباد أهلها ظاهرة فاشية عامة في العالم وكان للأخلاق وللعدالة والحرية والمساواة مقياسان أحدهما لأبناء الجنس والآخر للغرباء الأجانب .

٤ - ومن أعراض هذه الحضارة أيضاً تزعزع الأسس الاعتقادية القديمة والقيم الأخلاقية في المجتمع ، ذلك أن المسيحية ، وهي العقيدة التي كانت سائدة في الغرب بشكلها وصيغتها التي انتهت إليها ، لم يكن بإمكانها ولا من طبيعتها أن تتلاءم مع الحضارة الجديدة ، لا من

الوجهة العقلية ولا من الوجهة الأخلاقية السلوكية .
كما أنها لم تستطع أن تقدم حلولاً للمشكلات الفكرية
والاقتصادية والسياسية التي عرضت للمجتمع .
وبانهيار العقائد والقيم الخلقية والروحية القديمة
انفسح المجال لظهور مذاهب جديدة في العقيدة
والأخلاق والسياسة تحل محلها ، وكانت المذاهب المادية
والعلمية والمادية التاريخية والاشتراكية والديموقراطية
والقومية وغيرها .

هـ - إن هذه الحضارة الحديثة إلى جانب ما حققت من
خطوات تقدمت فيها البشرية تقدماً رائعاً في مجالات
الاكتشاف والبحث العلمي والصناعة الآلية ووسائل
العيش الرغيد ، وتعميم المرافق والمنافع والمساواة بين
مختلف الطبقات اقترنت بنقائص أساسية ومساوي،
فاضحة أبرزها :

التنافس الاستعماري والصراع بين الأقوام وظلم
الطبقات والأفراد بعضهم لبعض . وغلبة الأثرة
والأهداف المادية على الناس أفراداً وجماعات
وضعف الوازع الخلقى والضمير وتزعزع القيم ،
واضطراب العقائد والقلق الروحي وإهمال الواجب
والمملكات الروحية في الإنسان وتسخير العلم لغايات مادية
غير أخلاقية وحصر الإصلاح الاجتماعي حين يكون
إصلاح ، بالنواحي الاقتصادية وحدها . وبالجملة ارتقاء

الوسائل دون الغايات والأهداف كل ذلك لسبب أساسي هو أن هذه الحضارة لا تركز على تصور صحيح لحقيقة الكون والإنسان والحياة. فتهمل في الإنسان مواهبه الروحية وطرق المعرفة المتصلة بها . كما تهمل صلة الإنسان بخالق الكون فتنسى الله بل تجرده وتنكر مسؤولية الإنسان أمامه وتنكب طريق المصلحين الروحيين من الأنبياء والمقربين لآثارهم.

التقاء الشرق بالغرب :

لقد انتقل مركز الثقل في التقدم والحضارة والنشاط والفعالية في شتى آفاق الحياة من الشرق إلى الغرب ، وظهر ذلك بوضوح في القرن السابع عشر للميلاد وما بعده ثم كان بين العالمين والحضارتين اتصالات سلمية وغير سلمية عن طريق التجارة أو الثقافة أو الحرب أو الاستعمار والاحتلال . وكان من نتيجة هذا الالتقاء تأثير الشرق بالغرب وأخذ الكثيرون معالم حضارة الغرب وصفاتها سواء أكانت حسنة أم سيئة . وكان من الطبيعي أن تكون نتيجة التقاء الشرق الإسلامي بتركته المثقلة وحالته التي آل إليها ، غلبة الغرب على الشرق . سواء من الوجهة العسكرية والسياسية أو من الوجهة الفكرية والاجتماعية . وهكذا تجلّى غزو الغرب للشرق في نوعين من الغزو ، أحدهما الاستعمار أي الاستيلاء على البلاد ومرافقها وعلى الحكم فيها . وثانيهما : الغزو الفكري والاجتماعي . وإن من سنن الله في هذا الكون أن تغلب القوة الضعف ،

والعلم الجهل والعدل الظلم والنظام الفوضى والحرية الاستبداد
والعمل الكسل .

١ - فقد غزا التفكير العلمي والنهضة الفكرية الحديثة
الركود والجمود والخرافة التي كانت من مظاهر التفكير
في الشرق الإسلامي . فقامت في الشرق نهضة علمية
وجدت وعياً فكرياً ، ولكن رافقها نظرات مادية
ومذاهب إلحادية انتقلت من الغرب مع هذه النهضة .

٢ - وانتقلت النهضة الاجتماعية من الغرب إلى الشرق
سواء من الناحية العمرانية ووسائل المواصلات والعادات .
وحل الكثير من ذلك محل الطرائق القديمة في الحياة .
وأخذ هذا التبدل يعم الطبقات وينتشر في مختلف
البيئات وأصبح تحسين مستوى المعيشة ، وتأمين
الرفاهية واتخاذ وسائلها غاية أساسية لدى جميع
الطبقات .

٣ - وحلت الفعالية الاقتصادية الجديدة محل الضعف والتواكل
والانعزالية التي فشت في الشرق الإسلامي منذ ان
دست على الاسلام وانتشرت فكرتها وعم البلاء بها .
فقامت في الشرق نهضة صناعية ونشطت التجارة بينه
وبين الغرب ، ودبت الحركة في عروق المجتمعات حتى
احتلت القيم الاقتصادية والمالية المكانة الأولى في الشرق
٤ - واستغل الغرب ضعف الشرق ، ودفعته دوافع الكسب

والمال الى الغزو والاحتلال ، بعد أن ضعفت روح
الجهاد في الشرق الإسلامي وغم الاستعمار جميع بلاد
الشرق ، وحكمتها الدول الأجنبية الغربية .

هـ - وانهارت أنظمة الحكم الاستبدادية والفردية المطلقة
أمام الأنظمة الغربية المبنية على أسس شعبية وثورية
فأحدث ذلك وعياً سياسياً في طبقات الشعب في الشرق
ولكن هذا الوعي السياسي لم يجد أمامه إلا القوالب
التي صاغها الغرب فاتخذها قوالب له . وكانت الحركات
السياسية تظهر في أشكال شعبية عامة غير محددة .
أو في مذاهب اجتماعية استقيت أفكارها وفلسفتها من
الغرب ، وكلها ترمي إلى تأمين الحرية السياسية والعدالة
في الداخل وإلى محاربة الاستعمار في الخارج . ولكن
الوعي الاجتماعي اتخذ شكل التنافس بين الطبقات
والفئات كالحركة العمالية والحركة النسوية .

وبالجملة ، نستطيع ان نقول ان لقاء الشرق بالغرب أفده
من ناحية فذب فيه الحياة ونقل اليه الوعي والحركة . ولكنه
في الوقت نفسه نقل اليه مساوئه ونقائصه .

فالى جانب النهضة العلمية والاجتماعية والسياسية
والاقتصادية ، كان الاستعمار والصراع القومي والطبقي والاثرة
والأنانية الفردية وضعف الوازع الخلقي ، وانتشار المذاهب
المادية وفشو الاحاد والاعتقاد بتفوق الغرب والشعور بالنقص ،

وانتشار أفكار خاطئة نشأت في الغرب بسبب ظروفه التاريخية الخاصة ، ومنها الأفكار المتعلقة بالدين والتي نشأت في الغرب عن الصراع بين النصرانية والعلم من جهة ، وبينها وبين الثورات السياسية من جهة أخرى بسبب طبيعة الديانة النصرانية وتطورها واتجاه تعاليمها ومبادئها الخاصة بها ، والتي أدت إلى الأخذ بفكرة عزل الدين عن الحياة الاجتماعية عامة ، واعتباره أمراً شخصياً محضاً لا علاقة له بالتشريع والسياسة والتعليم .

أزمة في الشرق وفي الغرب

وهكذا.. غدا الشرق ملتقى لحضارتين: حضارته القديمة، بما اعتراها من وهن وضعف ، وخلل وانحطاط . وحضارة الغرب بما فيها من عناصر القوة والنهوض ومن بذور الفساد وضمور الشعور الخلقى . ونشأت لذلك أزمة وقلق في الأفكار والقيم والعادات . وأصبحت الحاجة ماسة لعلاج هذه الأزمة ولنظام اعتقادي وخلقى ، يكون فيه الانقاذ، ولم تغن المذاهب المستوردة من الغرب شيئاً ولم تستطع ان تحل المشكلة .

ذلك ان الغرب نفسه كذلك في أزمة .. فان مساوىء الحضارة الغربية ، أخذت تتكاثر وتتسع وتتنوع كلما تقدم الزمن وجفت أو كادت ينابيع الخير . وأخذ الغرب نفسه يفتش عن طريق للخلاص من حمأة المادية وحمى التنافس ، ويحن الى حياة الروح ونعيم الأخلاق وفردوس الإنسانية ، بعد أن تردى في نوع جديد من الجاهلية المسلحة والوثنية الجملة بزينة الفن

والعلم . وبعد أن أصبح الإنسان في حاجة إلى حضارة تحيط
بجوانب حياته وعناصر نفسه ، ولا تهمل ولا تظلم منها شيئاً ،
والى نظام كامل تنمو فيه إنسانيته وتسمو أهدافه .

إن هذه الأزمة العامة في الشرق وفي الغرب تدفعنا الى
استجلاء الإسلام في صورته الأصلية وشكله الصافي واتجاهاته
السامية لنفتش في نظامه الاعتقادي والخلقي والتشريعي عن
حل للمشكلة ودواء للأزمة وطريق للخلاص وسبيل الى سعادة
الإنسان كما تقتضينا أيضاً دراسة أزمة الحضارة الحديثة ومعرفة
عللها ونقائصها وذلك بغية تكوين وعي جديد يمكننا من
التخطيط من جديد لحياتنا في جميع جوانبها وآفاقها .

(١)

ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد

إننا في عصر تلتقي فيه المذاهب والحضارات ، ومثل هذه العصور تلتبس فيها المفاهيم وتتشابك العقائد وتتداخل المذاهب . وقد اعتري الإسلام في هذا العصر ، كما اعتراه في عصور سالفة غواشٍ غطت ، في بعض الأحيان ، على بعض أفكاره أو أدخلت عليه بعض الالتباس أو شوهته بعض التشويه . ولذلك كان من الضروري من أجل فهم الإسلام في صورته الصافية العود من جهة إلى أصوله ومصادره الأصلية الأولى من الكتاب والسنة وفهم الصدر الأول له ومن جهة أخرى رفع الغشاوات التي غطت عليه ومعرفة العوامل التي أثرت في تغيير بعض مفاهيمه .

(١) القى هذا البحث في مدرج جامعة دمشق في ٣ آذار (مارس) ١٩٦٢ .

الإسلام في العصر الحديث :

مر الإسلام في هذا العصر في مراحل كان أولها ما يمكن أن نعنونه بعنوان (الإسلام في قفص الاتهام) فقد وقف دعاة الإسلام في القرن الماضي يدافعون عن الإسلام على أنه متهم في قفص . فالإسلام كما يقولون « ليس منافياً للرقى ولا مانعاً من التقدم ولا معارضاً للعلم والعقل » . فكان الإسلام مجرم يراد أن يدافع عنه وهذا ما يلاحظ في المؤلفات الإسلامية التي ألفها دعاة الإسلام منذ قرن في كتابات محمد عبده وفريد وجدي وأقرانها .

ثم جاء عهد آخر خرج الإسلام فيه من قفص الاتهام ولكنه أصبح يقاس بمقاييس غيره أو يقوّم بقيم غير قيمه . فالإسلام صالح لأنه مبني على (الديمقراطية) والإسلام يستحق البقاء والخلود لأنه (متطور) والإسلام حسن لأن فيه كذا وكذا من الأفكار . وهذه الأفكار والمبادئ والقيم والمقاييس إنما استعيرت من مذاهب أخرى فكان الأصل أننا نؤمن بمذاهب معينة هي في خارج إطار الإسلام ثم نحاول بعد ذلك أن نقوّم الإسلام بهذه القيم التي نستعيرها من تلك المذاهب على أنها قيم مسلم بها وعلى أنها منبثقة عن مذاهب نؤمن بها . هذا طور ثانٍ مر به الإسلام ، ولا يزال الإسلام في هذا العصر اللهم إلا بعض طلائع الوعي في بعض البلاد الإسلامية ، في هذا الطور الذي يقاس فيه بمقاييس غيره .

والمرحلة الثالثة وهي المرحلة التي بدأت طلائعها في رأيي
 هي مرحلة الذاتية بالنسبة الى الإسلام. فللإسلام مقاييسه الخاصة
 ومعاييره الذاتية فهو ليس صالحاً لأنه موافق للديمقراطية أو
 للاشتراكية أو للرأسمالية أو لأن فيه حرية فردية أو لأن فيه
 مصلحة الجماعة أو لأن فيه كذا وكذا الى غير ذلك من
 المفاهيم المنبثقة عن مذاهب أخرى. إن للإسلام مقاييسه في
 الخير والشر والحق والباطل ولا نعني أن هذه المقاييس ليست
 لها جذور عقلية تترد إليها ولكنها جذور ممتدة من دوحتها
 وفروع مشتقة من أصل شجرتها . تلك هي المرحلة التي بدأت
 في العصر الحاضر أو بدأت طلائعها في عدد من المؤلفات القليلة
 وفي عدد من الرؤوس المفكرة في العالم الاسلامي. وهي المرحلة
 التي نتنبأ بأنها ستكون مرحلة الإسلام في المستقبل القريب .
 ولا بد لنا أن نعود القهقري قليلاً لنعرف السبب أو العوامل
 التي أثرت في تقويم الإسلام بهذه القيم وفي التباس مفاهيمه
 بمفاهيم غيره لاسيما ونحن في أعقاب عصور ضعفنا فيها، ثم التقينا
 بحضارة كانت في أوج قوتها وعز نشاطها تلك هي الحضارة
 الأوروبية الغربية الحديثة التي انبثقت هي نفسها من الوجهة
 المادية الى حد كبير من الحضارة الإسلامية في جانبها المادي .
 أوروبا التي التقينا بها

ان أوروبا التي التقينا بها هي أوروبا القرن الثامن عشر والتاسع
 عشر وأوروبا في هذين القرنين كانت في ظروف فكرية واجتماعية
 خاصة . وقد كانت تتميز بنواح ثلاث متلازمة أولها :

الثورة على الدين فقد آل الأمر بالمسيحية في أوروبا أن
أصبحت غير منسجمة مع التطور الفكري والتفكير العلمي الذي
انبثق إثر عصور النهضة فكان في أوروبا صراع، صراع بين العلم
والدين ، بين العقل والدين وكان هذا الصراع شديداً لا هباً .

والظاهرة الثانية وهي لا تقل قيمة وخطورة عن الظاهرة
الأولى هي أن الصناعة الكبرى إثر اختراع الآلة أدت الى نشوء
طبقات جديدة وأدت الى انفصال رأس المال عن العمل وكان
من ذلك أن نشأت طبقة العمال ونشأت الحركة الاشتراكية
لإزالة ما كان يلحق تلك الطبقات من المظالم الاجتماعية ونشأت
عن ذلك مفاهيم للحرية والديمقراطية والاشراكية هي وليدة
تلك الظروف التاريخية المحلية .

والظاهرة الثالثة التنافس القومي في أوروبا فإن التنافس بين
شعوب أوروبا وقومياتها أدى الى ردود فعل خاصة جعلت من
القومية أساساً تدور الحياة حولها وعقيدة تبنى عليها الحياة
السياسية والفكرية وتلك العقيدة إنما نشأت في ظروف معينة
هي التي أملت لها ولم يملها منطق العقل أو منطق الحقيقة .

تلك هي أبرز الظواهر التي ظهرت في أوروبا حين التقينا
بها . ونشأ بنتيجة ذلك في ميادين الفكر والاقتصاد والسياسة
أفكار متنوعة متعددة تأثرتنا نحن بها . وعلى سبيل التمثيل إليكم
بعض الأمثلة لبعض الأفكار التي أعتبرها وليدة هذه الظروف
الخاصة فمن ذلك مثلاً أفكار كثيرة تتعلق بالدين هي بنت تلك

الظروف وتلك الحقبة من التاريخ وكثير من التعبيرات التي
نستعملها اليوم ونستعيرها هي نتيجة تأثرنا من الحضارة التي
انتقلت إلينا في تلك المرحلة وذلك كمشكلة الصراع بين الدين
والعلم أو بين الدين والعقل وهي وإن كانت مشكلة قديمة
ولكنها لم تأخذ هذا الشكل العنيف الحاد وكذلك الازدواج
في التعليم بين ديني ومدني وتعبير رجال الدين . ولو نظرنا في
كتبنا القديمة في العصر العباسي وما بعده وما قبله لما وجدنا
مثل هذا التعبير الذي لم تعرفه العربية ولم يعرفه الإسلام من
قبل . ومن ذلك فصل الحياة الى جزئين منفصلين ، لا يكاد
يحدث بينهما اتصال ، الدين والدنيا ، وفصل الدين بنتيجة ذلك
عن المجتمع وعن الدولة يجعل الدين أمراً شخصياً لا علاقة له
بالحياة العامة وهذا أيضاً من المفاهيم التي انتقلت إلينا ، وأدت
الى مفهوم آخر هو ، مفهوم العلمانية ومعناه حياد الدولة وعدم
تدخلها في شؤون الدين ، واللا دينية ومعناها محاربة النزعة
الدينية .

ومن تلك المفاهيم أيضاً نسبية الأخلاق ، وهي وليدة أزمات
خاصة اصطدمت فيها الأخلاق الدينية بالأخلاق الواقعية
والأوضاع الاجتماعية والسياسية القديمة بأوضاع ثورية جديدة ،
بعد ان ثبتت تلك الأخلاق والأوضاع مدة طويلة . وهي ولا
شك فكرة خاطئة ، بدليل أن كثيراً من الحقائق أو الأحكام
والقيم الخلقية لا تزال ثابتة منذ آلاف السنين ، كاستنكار الغصب

والاضرار بالغير، والزنى الذي لا تزال القوانين تحرمه في أكثر بلاد العالم، ولا يعبأ ببعض أحوال المجتمعات التي تكون على خلاف ذلك لأنها أحوال مرضية شاذة واستحسان بعض المجتمعات في بعض العصور الاستبداد والظلم أو السكوت عنها لا تجعل منها أمراً مستحسنًا ولا تغير الحكم بكونها شراً يجب مكافحته .

ومن هذه الأفكار الخاطئة التي انتقلت إلينا من المجتمع الأوربي بعد أن راجت فيه لظروف اجتماعية وفكرية خاصة اعتبار التطور قانوناً أخلاقياً أي اعتبار كل طور جديد أفضل من الطور الذي سبقه على الإطلاق مع أن التطور قانون اجتماعي واقعي ولا يقتضي مطلقاً تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة له . ان فكرة التطور الاجتماعي أخذت من فكرة التطور الحيوي (البيولوجي) والتطور في الحياة قد يكون تحسناً وارتقاءً وقد يكون تردياً وانتكاساً بل انقراضاً^(١) .

فإن بعض المذاهب الفلسفية والاجتماعية في أوربا تقول إن الأخلاق ليس لها مقاييس ولا أحكام ثابتة فلكل قوم أخلاقهم، فقوم يرون أن شرب الخمر رذيلة وشر وغيرهم يرى فيها غير ذلك وبعضهم يرى أن الزنى شر ورذيلة وبعضهم يرى فيه إكراماً للضيف ، فالقضية قضية نسبية وليس هنالك قواعد أخلاقية مطلقة وليس هنالك حقيقة أخلاقية مطلقة وإنما القضية

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن التطور في هذا الكتاب .

نسبية ، فاختار إذن ما بدا لك وكلما تطور المجتمع نحو فكر
خلاقية جديدة فهي الأخلاق التي يجب أن نتمسك بها . هذه
الفكرة أيضاً من الأفكار التي اعتقد أنها نتيجة من نتائج الظروف
التي مرت بها أوروبا .

إن هذا الغزو الفكري الذي غزينا به بنتيجة الالتقاء بين
المجتمع الإسلامي والمجتمع الأوروبي كان له تأثير عميق في الفكر
الإسلامي الحديث . حتى أن جمهرة الشعوب الإسلامية والطبقة
المثقفة منهم خاصة بل غير المثقفة تأثرت بهذه الأفكار سواء
أولئك الذين يتنكرون للقيم الإسلامية وأولئك الذين يقبلون
الإسلام ويدينون به .

ازدواج الشخصية :

فمن المسلمين - وهذه ظاهرة تلفت النظر - من هو مسلم في
شعائره ولكنه غير مسلم في تفكيره بمعنى أنه يتألف من
شخصيتين مزدوجتين . فهو قد عاش في بيئة اعتادت التدين فهو
متدين ولكنه نشأ في بيئة ليس لها من المفاهيم الفكرية الإسلامية
ما يتناسب مع مستوى تفكيره فهو يفكر تفكيراً غير إسلامي
إذا فكر في شؤون الحياة سواء في شؤون الحياة العامة الفكرية
أم الاجتماعية والخلاقية والسياسية أو غير ذلك وهو في حياته
الخاصة يعتبر مسلماً . هذا نوع من المخلوقات الفكرية أو النفسية
الجديدة في عالمنا . وكان في العالم الإسلامي نوعان مزدوجان

من التعليم : تعليم إسلامي ولكنه قديم بطريقته ووسائل
ومستواه يعود الى القرون التي تلت العصور العباسية ، وتعليم
مصدره أوربا وأفكار أوربا الحضارة الأوربية الحديثة . وقد
أدى ذلك في بعض الأحيان بسبب هذا الازدواج والتناقض
وبسبب الأزمة الفكرية النفسية التي حدثت في بعض الناس الى
ظواهر غريبة أو الى ظواهر من نوع معين كظاهرة تأويل كثير
من أحكام الإسلام تأويلاً فيه كثير من المواربة والتعسف من
أجل المطابقة بين الإسلام والمذاهب الأخرى ولكن على حساب
الإسلام كما يقولون فكأنه يراد ان يشذّب الإسلام ويقطّع حتى
يدخل في قارورة فهمها ضيق ولو أدى ذلك الى أن تقطع منه
يداه أو رجلاه أو جهاز من أجهزته العضوية الأساسية . ولا
بأس ان أضرب على ذلك أمثلة وهذه الأمثلة اسمحوا لي ان
أقول إنها رأي شخصي لي ، وقد يكون غيرها أولى منها
بالاستشهاد في هذا الموضع . فمن هذه الأمثلة مسألة التماثيل .
فإن كثيراً من المتدينين يحاول ان يسوغها ويحللها ويروج لها في
مجتمعاتنا الإسلامية الحديث ذلك لأن اقامة التماثيل أصبح أمراً
شائعاً بين الأمم على اعتبار ان اقامة هذه التماثيل كان محرماً
لعل وقد بطلت هذه العلل على زعمهم وزالت . إن هذا التفكير
في رأيي باطل من أساسه لأن الفكرة هي أعمق مما يظنه هؤلاء
السطحيون ممن يريدون بهذه الطريقة الدفاع عن الإسلام .
فاقامة التمثال له مغزى فلسفي عميق . ذلك ان الأمة التي تقيم
التمثال لبطل من أبطالها إنما تجسد البطولة في شكل مادي ،

ولورجعنا إلى العصور الإسلامية لوجدنا ان اعطاء الشخص في جسده وفي ذاته قيمة عليا فكرة مردودة . فأعظم شخصية في الإسلام هي شخصية محمد بن عبد الله ﷺ الذي يعتبر بشراً ولكنه فوق جميع البشر بصفاته وكماله . ومما لا شك فيه انه لم تخلد شخصية في التاريخ وفي خلال العصور في نفوس الناس وفي أذهانهم وفي الكتب والدراسات كما خلدت شخصية الرسول محمد ﷺ . فما هي الطريقة التي اختارها المسلمون لتخليده . لا شك اننا جميعاً نعرف ان تخليد شخصية الرسول (ﷺ) كان تخليداً مغنوياً خالصاً وكان تخليداً أعظم وأقوى من أي تخليد لأي شخصية كانت . ولا يزال يرن في أذني صوت لعجوز هندية في الباكستان في حديقة كراتشي في أمسية من تلك الأمسيات التي كنت فيها هناك أزور تلك الحديقة فسمعت هذه العجوز الجالسة على الأرض تسأل الناس وتقول اللهم صلي وسلم على سيدنا ومولانا محمد فقلت عجباً لهذه المرأة الهندية حفيذة المجوس وعباد الأوثان عجباً لهذه المرأة التي لا تعرف العربية والتي يفصلها عن محمد عليه الصلاة والسلام آلاف الأميال في المكان ومئات السنين في الزمان كيف تنطق بلفظ عربي مبين باسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتشيد بشخصيته .

وقد أقمت سنين في أوروبا ، وكنت أشاهد في شوارع باريس وحدثاتها كثيراً من التماثيل وأؤكد لكم أن كثيراً من الفرنسيين الذين كانوا يزاملونني في الدراسة كانوا لا يعرفون كثيراً من هذه

التماثيل ولا معانيها ولا نواحي البطولة التي يمثلها أصحابها . ولو
استعرضنا الأمم لوجدنا أن تلك التي تقدر المادة وتتجه اتجاهها
مادياً هي التي تجسد البطولة في شكل مادي وهي التي تخلد
الأبطال في شكل تماثيل ، بل هي الأمم التي كانت في الحقيقة
وثنية في اعتقادها ودياناتها كالليونان والهنود وقد أخذت هذه
الوثنية شكلاً آخر من الأشكال الحديثة المدنية ، فالليونان كانت
أساطيرها تعج بالأبطال والبطل لا يتصور أن يكون بشراً في
نظرهم لأنهم أعجز من أن يتصوروا الإنسان بطلاً ، فإذا ما
أصبح بطلاً نقلوه من صف البشر إلى صف الآلهة . وأما
المسلمون فإنهم كانوا على خلاف ذلك فلو ذهبت اليوم إلى
أقصى حدود المغرب إلى أقصى حدود الهند والصين ونطقت
باسم علي أو أبي بكر وباسم عمر أو خالد لوجدت رنيناً لهذه
الألفاظ لا تجده أبداً لتمثال مقام في موسكو أو في برلين أو
في باريس . فالقضية إذن ليست قضية تحليل التماثيل فالتماثيل
محرمة في الإسلام لفلسفة عميقة هي أعمق بكثير مما يظن
هؤلاء السطحيون من الذين يحسبون أنهم يدافعون عن الإسلام
باخضاعه لنظم هي أدنى منه ولما ييس هي دون مقاييسه .

ومن أمثلة ذلك اليانصيب التي اعتبرها ظاهرة مغزاهما
العميق أن معين الأخلاق المنبثق عن الإيمان قد نصب من القلوب
وأن الناس أصبحوا ماديين لا يهتمون إلا بالمادة والربح والاغراء
بالربح ولا بد من إغرائهم بالربح حتى نأخذ منهم المال لعمل

خيري. فاليانصيب مبني إذن على فكرة نضوب معين الأخلاق من القلب لا على أساس محاولة انبثاق الأخلاق من القلب والعاطفة والنفس في شكل توضحية حقيقية بل بشكل اغراء خسيس بالكسب . هذا ويجب أن نميز بين هذا النوع أو هذه الظاهرة التي أسميتها التعسف في التأويل وبين تكييف الحوادث والنوازل الجديدة التي ينبغي استنباط أحكامها من الشريعة الإسلامية مما سأذكره بعد قليل .

تشويه المفاهيم الإسلامية :

ان هذه الظاهرة ظاهرة تشويه المفاهيم الإسلامية بسبب الالتقاء بالحضارات الأخرى ليست جديدة في تاريخنا ففي تاريخنا القديم مثل ذلك . فقد التقينا بالفكر اليوناني وكان نتيجة الالتقاء ظواهر كثيرة كمسائل علم الكلام فلم تكن العقيدة الإسلامية وعلى الأصح الإيمان الإسلامي - لأن لفظ العقيدة كذلك حادث - في عهد الرسول (ﷺ) والصحابة أخذاً هذا الشكل الجدلي الفلسفي الذي أخذه في العصر العباسي .

فقد كان الإيمان - وهي الكلمة القرآنية - محتويًا على معنى عقلي وعلى معنى نفسي عاطفي ملتبسين متداخلين كل التداخل في العهد الاول عهد ظهور الإسلام . وإذا بنا نرى ان الإسلام يتشعب الى شعب ثلاث: شعبة تأخذ بمظاهر الأحكام والشعائر في العبادات والمعاملات . وفرع آخر يأخذ من الإسلام نواحي

الاعتقاد العقلي وهو الكلام والعقيدة أو علم التوحيد . وفرع
 آخر للإسلام يأخذ بنواحيه القلبية والحلقية وهو الأخلاق أو
 الزهد أو ما سمي بعد الصدر الأول بالتصوف . فإذا بالإسلام
 يتألف من شعب ثلاث ينفصل بعضها عن بعض : الفقه والكلام
 والأخلاق . ولا أقصد من هذا ان الفقهاء كلهم لم يكونوا ملين
 بشيء من الكلام وان المتكلمين جميعهم لم يكونوا على شيء من
 الفقه وان الزهاد والوعاظ لم يكونوا يعنون بالفقه والعقائد ،
 ولكن كان يغلب على الرجل ان يكون متكلماً أو متفقاً أو
 زاهداً متصوفاً وان كان بعضهم قد جمع هذه الجوانب كلها .
 وأصبحت هذه الجوانب كلما تقدم الزمن منفصلة بعضها عن
 بعض بعد أن كان الإسلام وحدة شاملة . وهذا يعطي عن
 الإسلام صورة جانبية ، فهناك إسلام علم الكلام وهناك إسلام
 الأخلاق وهناك إسلام الفقه ، والإسلام هو الإسلام ليس الإسلام
 إسلام الكلام أو الفقه أو التصوف . والصورة الجانبية لا يمكن
 أن تعتبر صورة كاملة تامة في رأيي ولذلك فان تشعب هذه
 النواحي وان كان فيه تسهيل من الناحية العلمية والدراسية
 تجزئة حياة موحدة لا يحصل في أجزائها ما يحصل في تركيبها
 جملة واحدة . والإسلام الأول إسلام الصدر الأول من الصحابة
 الذين كانوا ملتفين حول الرسول (ﷺ) يجمع هذه العناصر
 الثلاثة جمعاً منسجماً متوازناً حيويًا .

وعلى هذا فلا بد لنا اذن من ان تفصل الإسلام في ذاته

عن فهم المسلمين للإسلام خلال العصور . فهناك الإسلام في أصله وينبوعه في الكتاب والسنة في مصادره الأصلية وهنالك فهم المسلمين في كل عصر فقد يخطئ بعض المسلمين في فهم الإسلام في بعض العصور فذلك أمر لا يعيب الإسلام في ذاته وفي مصادره الأصلية ولا في صورته الحقيقية . ولا شك ان الفهم الذي يمكن ان نعتبره أقرب للتصوير الحقيقي للإسلام والذي نستأنس به نحن في فهم الإسلام هو فهم الصدر الأول اي فهم الصحابة والتابعين . ولست في هذه العبارة أعني أي غض من مفهوم المسلمين للإسلام في سائر العصور التالية فقد ظهر في كل عصر من كبار العلماء والباحثين والمدرسين حقيقة الإسلام كثير ممن لم تنقطع حلقاتهم وسلسلتهم حتى عصرنا هذا فللإسلام في الحقيقة إذن إذا كشفنا عنه غواشيه سواء في هذا العصر أم في العصور السالفة ذاتيته وحقيقته والإسلام في الحقيقة نظام كامل ، فهو من جهة فهم للحياة وتصور شامل للوجود وإيمان بهذا الفهم ونظام عملي ينبثق من هذا التصور والإيمان .

ويتلخص التصور أو المفهوم الاسلامي العام في ان هذه الطبيعة التي تحيط بالإنسان والكون الذي يعيش فيه مها يتسع أفقه ومسافته ، كون مخلوق من ورائه وجود مطلق وقوة حية مدركة هي قوة الخالق والإنسان في هذا الكون وبهذه الأرض بالذات مستخلف من الله الخالق ليعيش فيها وليتمتع بما فيها من نعم وطيبات وأرزاق بل ملذات محلة مشروعة على أن يعلم

انه في استخلافه هذا وفي تمتعه وسعيه وعمله محاسب ومسؤول أمام هذه القوة الخالقة المدركة المحاسبة . وينبثق عن هذا الفهم وعن هذا الإيمان عمل وعبادة متصلان أيما اتصال من حراثة وزراعة للأرض وتأمل لهذه القوة التي خلقتها وأنعمت عليه وهذا العمل والعبادة هما من نوع واحد فهو يطيع الله في أن يشق الأرض بالمحراث أو يحرك الآلة في بده وهو في ذلك مطيع لله عابده وكذلك هو مطيع متعبد حينما يخلو في سويحات من يومه ليفكر في خالقه وليتأمل فيما وراء هذه الحياة من مسؤولية وحساب . وينبثق عن هذه الفكرة أو العقيدة أو الإيمان على الأصح تعاليم أخلاقية وهي تعاليم تأخذ من ناحية بشيء من الواقعية في الحياة وتعمل من ناحية أخرى لترقية الروح فتفسح المجال للفرائز وتصريفها في حدود معينة وتضبطها وتعمل على انسجامها مع الرقي الخلقي والروحي . ولست الآن لألخص في أكثر مما قلت المذهب الأخلاقي في الإسلام . والإنسان الذي يؤمن هذا الإيمان ويعمل في الحياة في هذا الطريق ليس هو الإنسان الفرد بل هو الإنسان الموجود في إطار اجتماعي الذي يعيش في مجتمع يحدد الإسلام اتجاهاته وصفاته وعلاقات أفرادهم ببعض ، ويعني به كذلك باعتباره مجتمعاً أو جماعة ، وقيم له تشريعاً تنسجم فيه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . فيقيم له نظاماً اجتماعياً يكفل له هذا الرقي الإنساني المادي والروحي ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على نظام للحكم أساسه الشورى والمساواة والعدالة والمسؤولية ،

وعلى نظام اقتصادي مبني على العدالة من جهة وعلى التكافل الاجتماعي من جهة أخرى كما يشتمل على نظام للأسرة الخلية الطبيعية الأولى والبيئة التربوية لكل مجتمع سليم .

هذا المجتمع الذي ينظم الإسلام جوانب حياته السياسية والاقتصادية والأسرية في سبيل سعادة الإنسان وارتقائه يقوم على أسس اعتقادية خلقية تكون جذور نظامه وأسس بنائه . فالتشريع الإسلامي بالإضافة إلى موضوعيته وتنظيمه على أسس ظاهرة وضوابط موضوعية له جذور خلقية في النفس وأصول اعتقادية تغذيه وتمده وتدعم بناءه . فالتشريع غير منقطع الصلة بالأخلاق وإن كان لكل منها قواعد لا تلتبس بالأخرى ، وهذه الأخلاق تركز على نظرة إلى الوجود أو فلسفة شاملة أو عقيدة كاملة .

وبذلك يتصل في نظام الإسلام عقيدته أو فلسفته وأخلاقه وتشريعه الاجتماعي وتؤلف كلها وحدة متكاملة تقابل وحدة الحياة وهذه مزية هامة من مزايا الإسلام تميزه عن غيره من الأنظمة الأخرى التي تعالج جانباً واحداً من جوانب الحياة أو تعالجها منفصلة دون أن تنظر إليها على أنها وحدة كاملة . إن الوحدة والتوازن والانسجام والشمول خصائص تميز نظام الإسلام من الأنظمة الأخرى المادية منها والروحية الوضعية والدينية .

ضبط النسب في نظام الإسلام

والى جانب خاصة الوحدة في نظام الإسلام خاصة أخرى لا تقل عنها شأنًا وهي ضبط النسب بين جوانب الحياة وقيمها فالمال واللذة والعمل والعقل والمعرفة والقوة والعبادة والقرابة والقومية والإنسانية قيم من قيم الحياة والإسلام جعل لكل منها موضعاً في نظام الحياة ونسبة محدودة لا تتجاوزها حتى لا تطفئ قيمة على قيمة . وان من التشويه للإسلام تبديل هذه النسب بحيث تزداد عن حدها أو تنقص بالنسبة الى غيرها كما حدث فعلاً في بعض العصور الأخيرة فإن تغيير النسب في نظام الحياة كتغير النسب في التصوير الهزلي الذي يعطي من الإنسان المعالم والمشابه ولكن على وجه هزلي ساخر وكتغيير النسب في أجزاء الدواء فقد يؤدي الى افساده وتغيير صفاته وخصائصه وربما انقلب الى مادة ضارة أو سامة فلو جعلنا الحياة مئة جزء لوجدنا ان الإسلام خص العبادة منها بأجزاء وكذلك الإنفاق والكسب والجهاد والتمتع بالملذات المشروعة لكل منها نصيب محدود ولو غيرنا هذه النسب فقللنا قيمة الجهاد وزدنا في نصيب العبادة وانتقصنا من حظ المال كسباً أو انفاقاً وغالينا في الملذات أو الغيناها فخرجنا من ذلك بنظام يخالف في حقيقته وفي روحه نظام الإسلام وأخللنا بالتوازن الذي أقامه بين قيم الحياة وجوانبها فالمسلم الكامل في بعض العصور الأخيرة هو المنصرف الى العبادة بمعناها الضيق لا يشتغل بسواها، المعتكف في محرابه

لا يبارحه ، الملتزم لاذكاره وأوراده . ان هذه الصورة لا تشبه
مطلقاً الصورة التي كان عليها الرسول الكريم صلوات الله عليه
وأصحابه المقتدون به فلئن كانت العبادة جزءاً أساسياً في
حياتهم فإن الجهاد كان مالئاً لصفحاتها ، الجهاد في سبيل
تحرير المجتمع من العقائد الفاسدة وترسيخ العقائد الصحيحة
وتحريره من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين لحماية المستضعفين
واقامة العدل بين الناس . وكذلك تكون حياة المسلم المنشغل
بالجهاد والإصلاح الاجتماعي ناقصة مشوهة بالقياس إلى الصورة
الإسلامية الكاملة اذا كانت خالية من العبادة ضعيفة الصلة بالله .

وقد انتبه فقهاؤنا المتقدمون الى هذه الفكرة فكرة النسب
فجعلوا ما يطلب من المسلم من الفرائض وغيرها متفاوتة في
قوة طلبها كما جعلوا المنوعات المحرمات مختلفة كذلك في
درجة منعها أو حرمتها . فليس سواء في الإثم ترك الجهاد
المرابط في صف الجهاد مكانه وفسحه المجال لدخول العدو
وشرب الخمر أو أكل لحم الخنزير مع ان كلا الأمرين حرام .
وتشير آيات وأحاديث كثيرة الى هذه الفكرة كقوله تعالى :
أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم
الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله (١) . وكقول
الرسول ﷺ حين سئل ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ وأعادوا
عليه مرتين أو ثلاثاً وهو يقول لا تستطيعونه ثم قال مثل

(١) سورة التوبة ١٩ .

المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد ^(١) وفي الصحاح قيل : يا رسول الله أي الناس أفضل قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قيل : ثم من قال : رجل في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره ^(٢). وروى الإمام أحمد بسند صحيح قول الرسول ﷺ درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية . فالربا وهو من أنواع الظلم المالي أشد حرمة من الزنى . ولو حاولنا أن نجمع أمثال هذه الأحاديث التي تقدر القيم بعضها بالنسبة إلى بعض لخرجنا منها بنسب رياضية بين قيم الحياة . كقوله عليه الصلاة والسلام : يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ^(٣) وقوله : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ^(٤) وقوله : فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ^(٥) .

ومن هنا يتبين خطأ من يصرفون مهمهم إلى أمر قد يكون في ذاته مطلوباً أو ممنوعاً في الإسلام ولكن في مقابله أمر

(١) أخرجه الستة إلا أبا داود .

(٢) أخرجه الستة إلا مالكاً .

(٣) وفي رواية عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة بقيام ليلها وصيام نهارها وجور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة (الطبراني في المعجم الكبير والأوسط) .

(٤) أخرجه الترمذي وصححه .

(٥) أخرجه الترمذي وقال هذا غريب لا نعرفه إلا عن الوليد بن مسلم .

أخطر منه بكثير فالبلاد الإسلامية مبتلاة في هذا العصر بخطر
عظيمين هما الاستعمار والاتحاد أي الاستيلاء على الأرض
والاستيلاء على العقيدة أي اتلاف ثرواتها المادية والمعنوية
وسلبها ، ولو تم الاستيلاء على البلاد وتهديم العقيدة واستمر لما
أمكن إقامة شعائر الدين ولا القيام بأوامره وتطبيق أحكامه
ولذلك فإن صَرف أذهان الناس إلى قضايا أخرى وجعلها محور
النضال الإسلامي الهاء عن أهم القضايا الأساسية التي هي الاستيلاء
على البلاد الإسلامية أو السيطرة عليها بطريقة مباشرة أو غير
مباشرة وتهديم العقيدة الإسلامية بشق الأساليب ونشر الأفكار
والمذاهب الإلحادية على اختلاف صورها . فهل يجوز في مثل
هذه الحال تقسيم المسلمين إلى من يقولون بأن التراويح ثمانية ومن
يقولون بأنها عشرون وإلى القائلين بتكرار الجماعة أو عدمها أو
احتدام معركة السنة والبدعة في أمور لا تمس العقيدة . أنا لا
أقول أن لا تبحث هذه الأمور بحثاً علمياً بل أقول أنه يجب
التنبية حينما يكون الأمر ماساً بالعقيدة ويحسن التنبيه إلى
الطريقة الصحيحة في العبادات لأن العبادات توقفيه فلا زيادة
ولا نقصان فيها عما أمر به النبي صلوات الله عليه أو فعله ومع
ذلك فإذا كان ذلك يحدث فتنة أو يحدث خصومة وعداوة بين
فئتين من المسلمين وجب ترك ذلك لما يترتب عليه من منكر
أعظم ولما ينشأ عنه من تقسيم المسلمين إلى فئات متعددة في
ظروف وأحوال لا يجوز فيها تفتيت القوى ولا الاشتغال إلا
بالقضايا الأساسية الكبرى .

الإسلام في مواجهة المشكلات الجديدة

(١) التعسف في فهم النصوص

إن المسلمين حين واجهوا الحضارة الغربية في هذا العصر وقفوا مواقف مختلفة وصادفوا أحوالاً متنوعة . ففي حين أن بعضهم قاس الإسلام بمقاييس غيره وقوّمه بقيم استعارها من أنظمة أخرى وهي غير مسلم بها نرى فريقاً آخر يتعسف في فهم النصوص ويتعثر في فهم مدلولات الألفاظ ومثال ذلك من ينكر مبدأ الضرائب المالية بحجة أنه ليس في الإسلام ضرائب وإنما فيه الزكاة ولو كان هذا المنكر دقيقاً خبيراً لقال ان الضريبة مال تستوفيه الدولة من الناس وتجبّيه منهم جبراً بطريقة معينة أو نسبة محددة . ولو نظرنا إلى موقف الإسلام حينئذ من الضريبة لوجدنا أنه يقر أنواعاً منها وينكر أنواعاً فالزكاة نفسها ضريبة مالية وكذلك الخراج والجزية مثلاً . ولو طرحنا هذا السؤال هل يجوز لولي الأمر أن يفرض على الناس ضرائب لم يرد عليها نص شرعي لكان الجواب أن في الإسلام قاعدة قررها الحديث الوارد في صحيح الترمذي وهو قوله عليه السلام « في المال حق سوى الزكاة » ولم يحدد الحديث هذا الحق فاذا اقتضت مصلحة المجتمع إنفاق المال ولم يكن في بيت المال ما يكفي وكانت هذه المصلحة ضرورية كالدفاع عن أرض المسلمين أو كفاية الفقراء الذين لم تكفهم أموال الزكاة

فلولي الأمر أن يفرض في أموال القادرين ما يسد تلك الحاجة
الضرورية تطبيقاً لهذا المبدأ . وعلى هذا فليس مبدأ فرض
الضريبة في ذاته منكراً ولكن لو فرض الحاكم ضريبة لا مسوغ
لها أو تتضمن ظلماً لفئة من الناس لكان بذلك مرتكباً ظلماً
لا يقبله الإسلام . ولا عبرة لكون لفظ الضريبة حديثاً غير
قديم ولا يستدل من حدائتها على أن مدلولها لم يكن معروفاً
بل الأمر على عكس ذلك إذ أن مدلولها وهو (فرض ولي
الأمر فريضة في مال الرعية) كان معروفاً وتدخل الزكاة تحت
هذا المعنى الواسع ولكن الزكاة هي الحد الأدنى الذي لا بد
منه وإذا تأملنا الحديث القائل : (في المال حق سوى الزكاة)
والحديث الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه : عن أبي سعيد
الخدري قال بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على
راحلة له فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ
« من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان عنده
فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له فذكر من أصناف المال
ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » . أقول
إذا تأملنا في هذين الحديثين عرفنا أن لولي الأمر كما بين الفقهاء أن
يأخذ حين اقتضاء الضرورة وتحقيق المصلحة العامة من أموال
الناس الزائدة عن حاجاتهم الأصلية ما يقتضيه تلك الضرورة
وتتحقق به المصلحة ويفهم من هذا الحديث أن تملك ما يزيد
عن الحاجة إنما هو في المفهوم الإسلامي نوع من التملك الذي
يمكن أن يحدده ولي الأمر بحدود الضرورة والمصلحة العامة .

وأما تقدير الضرورة والمصلحة فليس كيفياً ولا خاضعاً
لأهواء الحاكم وإنما يجب أن يستأنس فيه بأهداف الشرع
المستنبطة من نصوصه ويقتصر فيه على حد الضرورة
ولا يتعداها . وقد ذكر الفقهاء أحوالاً لولي الأمر له فيها أن
يأخذ من أموال الأغنياء أو من فضول أموال الناس ما تسد
به الحاجة الضرورية .

(٢) تطبيق قواعد الشريعة على الأحوال الجديدة

وقد تحدث للناس أحوال وتقع لهم وقائع تقتضي حكماً
جديداً على مبادئ الشريعة ويستنبط من أهداف نصوصها
ومن قواعدها العامة وغاياتها . ومثال ذلك في عصرنا نظام
العمل . فقد يقول : قائل أن العامل بالنسبة إلى رب العمل أجير
تنطبق عليه أحكام الإجارة في كتب الفقه والعقد الذي ينبغي
أن يطبق ما دام مستوفياً لشروطه وليس لكم أن تفرضوا على
رب العمل أو على العمال أي شرط آخر كتحديد الأجر أو
ساعات العمل أو غير ذلك .

ولو نظرنا إلى هذه المسألة بروح الشريعة لوجدنا أن هذا
الاعتراض سطحي جداً ومردود وينطوي على جهل بظروف
المشكلة وبروح الشريعة في آن واحد . ذلك أن العامل قد
يكون مضطراً بسبب حاجته لقبول الأجرة المعروضة عليه
وقد تكون دون ما يستحق من أجر وتشتد الحال إذا كان

رب العمل واحداً أو جماعة متفقين على أن لا يدفعوا للمال
إلا أجراً ضئيلاً ، طمعاً في الربح الكثير مستغلين شدة حاجة
العمال الطالبين للعمل . وقد يرهق رب العمل عماله بالعمل
الطويل الشاق كما كان يحدث في أوروبا في أوائل عهد الصناعة
الآلية . وفي مثل هذه الحال يستطيع أن يتحكم قليل
من أصحاب المال والنفوذ في آلاف من العمال الفقراء غير
أولي النفوذ .

فهل نتركهم في فقرهم وسوء حالهم ؟ إن الإسلام يعالج
هذه القضية وذلك بأن يعطي الفقراء من العمال من بيت المال
إذا كان فقرهم غير ناشئ عن ظلم من استخدامهم في العمل . وإذا
لم يكن في بيت المال من أموال الزكاة ما يسد هذه الحاجة فرض
على الأغنياء فريضة من أموالهم ليردها على الفقراء . وأما إذا
كان الفقر ناشئاً عن ظلم هؤلاء العمال كاعطائهم من الأجر دون
ما يستحقون ودون ما تقتضيه العدالة في توزيع الربح وأخذ
صاحب العمل الأرباح الفاحشة فإن لولي الأمر أن يتدخل في
الأمر ويفرض الأجر العادل . وهذا يدخل في باب التسعير وهو
تسعير للأعمال كتسعير السلع والبضائع وقد نص أكثر الفقهاء على
جواز التسعير في أحوال منها احتكار الأقوات وبيعها بسعر
جائر . والأعمال كالسلع في هذا الحكم ^(١) ، وقد ورد في

(١) راجع بحثاً مفصلاً في التسعير وأقوال المذاهب فيه في كتاب الحسبة
لابن تيمية أو في كتاب الطرق الحكيمة لابن قسيم الجوزية ، وانظر كتابنا
(الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) .

الحديث (أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه) ، وفي الحديث الآخر الوارد في صحيح البخاري : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته من أعطى بي ثم غدر ومن باع حراً وأكل ثمنه ومن استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره » . ولا شك أن المقصود من أجره في الحديثين الأجر العادل الذي يستحقه لا الأجر الجائر الذي يأخذه بالرضى الظاهر مع السخط القلبي لشدة الحاجة . وقد ورد في أحاديث أخرى النهي عن تكليف الصبيان الكسب لئلا يلجؤوا إلى السرقة وعن تكليف الاماء كذلك^(١) كما ورد النهي عن تكليف الخدم من العمل ما يغلبهم^(٢) .

ومن المعلوم أن لولي الأمر أن يقيد المباح أو أن يأمر به إذا كان في ذلك مصلحة عامة وفي هذا كله ما يصلح أن يكون أساساً وقاعدة لنظام للعمل تصان به حقوق الناس سواء أكانوا عمالاً أم أرباب عمل أو أصحاب أموال لأنه كما يمكن أن يظلم أصحاب الأموال العمال ، يمكن أن يقع العكس كذلك بأن يطغى العمال بسبب كثرتهم وشدة ضغطهم وتسلطهم في بعض الأحيان على الحكام فيطالبوا بما ليس من حقهم وإن كانت الحالة الأولى الأكثر شيوعاً ووقوعاً . فوظيفة ولي الأمر في الشريعة الإسلامية إقامة العدل وإلزام كل إنسان

(١) تيسير الوصول ج ٣ ص ١٤٣ .

(٢) تيسير الوصول ج ٣ ص ١٨٤ .

حده وإعطاء كل ما يستحق وفقاً لقواعد الشريعة التي روعيت فيها في الأصل مصالح الناس وحقوقهم وإنصاف بعضهم من بعض . ولا يقال إن هذا من باب التشريع ، ولا يجوز لولي الأمر أن يشرع لأن الله وحده هو المشرع فإن هذا كلام مبني على المغالطة لأن لفظ التشريع أصبح له معنى اصطلاحى جديد وليس هو في الحقيقة في الأحوال التي ذكرناها من تحديد الأجور أو ساعات العمل أو ما يشبه ذلك من التقييدات إلا تطبيقاً لقواعد الشريعة وتنفيذاً لأحكامها من باب السياسة الشرعية ومما أجازته الشارع لولي الأمر تحقيقاً لإقامة العدل بين الناس . وتسمية الناس له تشريعاً لا تجعله ممنوعاً سواء أكانت هذه التسمية صحيحة أم خاطئة ، فالعبرة بما يدل عليه اللفظ وبحكم الإسلام فيه .

(٣) مصطلحات وتصنيفات جديدة :

إن من الأحوال التي يقع فيها الالتباس والخطأ استعمال ألفاظ اصطلاحية جديدة أو تصنيف الأشياء تصنيفاً جديداً . فإن استعمال الألفاظ والمصطلحات الجديدة قد يجر إلى نتائج خطيرة ويؤدي إلى انحراف وإلى إدخال مفاهيم غريبة وقد يكون مجرد اصطلاح في التسمية ولا مانع منه مطلقاً في هذه الحالة ، كما لو جمعنا أحكام الزواج والطلاق والنفقة والوصية والميراث في باب واحد وسميناه الأحوال الشخصية أو أحكام الأسرة ، أو جمعنا الأحكام المتعلقة بعلاقات الدولة الإسلامية بغيرها من

الدول تحت عنوان العلاقات الخارجية أو القانون الدولي دون أن نغير شيئاً من تلك الأحكام فأننا لا نكون بذلك قد أحدثنا خلافاً أو تشويهاً في أحكام الإسلام ومفاهيمه . ومثل هذه المصطلحات استحدثت في العصور الإسلامية السابقة وكثير من مصطلحات الفقهاء قد نشأت في عصر متأخر عن صدر الإسلام . ومع ذلك كله فإن هذه العملية قد لا تكون مبرأة من العيوب والآفات فإن فصل بعض المسائل عن غيرها ووضعها تحت عنوان خاص قد يؤدي إلى انقطاع صلتها بغيرها أو إلى إخفاء هذه الصلة التي قد تكون مقصودة في ذاتها . ومثال ذلك لفظ (العقيدة) فإنني لم أصادف هذه الكلمة في نصوص الكتاب والسنة وأرى أنها مستحدثة في العصر العباسي لهذا المعنى الذي استعملت فيه واللفظ المستعمل في القرآن والحديث هو الإيمان . وقد استعمل لفظ العقيدة أجيال من أئمة المسلمين وعلمائهم بمعنى الأفكار الأساسية التي يجب على المؤمن بالدين أن يصدقها ويقبلها أي يعتقد بها . واستعمال السلف من العلماء والأئمة دليل على الجواز ومع ذلك فإن هذا الاستعمال يتضمن فصل العنصر العقلي الذي هو مضمون العقيدة عن العنصر النفسي مع أن كليهما مجموع في لفظ الإيمان المستعمل في القرآن والحديث . وكذلك جمع أبحاث العقيدة في علم سمي علم الكلام يتضمن تخصيص الأبحاث العقلية من العقيدة وإفرادها دون الجانب القلبي أو النفسي الذي أفرد له علم آخر . إن جمع أصول الإيمان ومسائل الاعتقاد في باب واحد تحت اسم العقيدة عمل

صحيح سليم واستحداث لفظ العقيدة لا يدل على استحداث
مضمونها ولا يغير منه شيئاً بل انه يفيد حصر قضايا الاعتقاد
بتمييزها من غيرها ويزيدها تنويراً وإيضاحاً ، ولكنه ينطوي
في الوقت نفسه على عملية فصل تلك الوحدة الحيوية الشاملة
التي يحيط بها لفظ الإيمان وتشتمل على عنصري العقل والعاطفة
أو القلب وعلى انفصال الاتجاه العقلي عن الاتجاه النفسي
القلبي .

وهناك حالة ثانية يكون فيها للتعبير أو اللفظ خطورة
بالغة وتأثير عميق وتغيير للمفاهيم أو إدخال لمفاهيم جديدة
غريبة عن الأصل . ذلك أن نقل الألفاظ من عقيدة إلى
عقيدة ، ومن مذهب أو نظام إلى مذهب أو نظام آخر يجر
معه ملاساتها والمفاهيم المتصلة بها في تلك البيئة التي كانت فيها .
إن ألفاظ الديمقراطية والاشتراكية والحرية مثلاً نشأت
وعاشت في أجواء وبيئات معينة واقتربت بمفاهيم ونظريات
خاصة فإذا استعملناها حين نعبّر عن نظام الإسلام ومفاهيمه
نتعرض - إذا لم نتصف بالدقة والوعي الإسلامي السليم -
لخطر إدخال مفاهيم غريبة أو إحداث انحراف في الاتجاه
كما سنبين ذلك بوضوح وتفصيل .

ومن أمثلة هذه التعابير التي دخلت في لغتنا ونقلناها من
اللغات الأجنبية ونقلنا معها ضمناً النظرة التي تحملها ، يكتبها
كبارنا ويتعلمها صغارنا في المدارس منذ السنين الأولى ، قولهم

مثلاً أن الطبيعة أعطت سورية مناخاً صالحاً ومنحت سواحلها
أمطاراً كثيرة ، أو قولهم على سبيل المجاز تبعاً لذلك غضبت
الطبيعة فبخلت بالأمطار وحركت أمواج البحر ... ان هذه
التعابير وليدة نظرة القرن الثامن عشر في أوروبا حين أحلوا
الطبيعة محل الله فألهوها وأنكروا وجود الله وهي نظرة إلحادية
واضحة وترديد هذه التعابير على مسمع المبتدئين هو تلقين ضمني
لنظرية الإلحاد وإشاعتها بين الناس إشاعه لا شعورية . ومن هذا
القبيل أيضاً استعمال أوصاف البطولة والنبوغ والعبقرية
للأنبياء^(١) . ولست أريد من هذا نفي هذه الصفات عن الأنبياء
ولكنني أرى أن كثرة ترديدها والاكتفاء بها إحلال لمفهوم
البطولة والنبوغ والعبقرية محل مفهوم الوحي والنبوة مع أن
النبوة أسمى بكثير وأرقى طبيعة ونوعاً من النبوغ والبطولة
والعبقرية وان كانت لا تنافيا بل قد تندرج هذه الصفات
فيها فان هذه الصفات قد يتميز بها أفراد من البشر ممن حولهم
من الناس كشدة الذكاء ولكنها على كل حال صفات بشرية
عادية ، أما مفهوم النبوة فمبني على اتصال إنسان اختاره الله
من البشر اتصالاً لا نعرف كيفيته وكنهه بالقدرة الإلهية .

(١) حدثني الأستاذ العقاد رحمه الله بمناسبة تسميته كتابه (عبقرية محمد)
(ص) فقال : اعترض بعضهم على هذه التسمية وأنا لم أقصد بها نفي
النبوة أو القول بأن النبوة عبقرية ولكنني قصدت اننا لو تركنا الوحي
والنبوة من حياة محمد (ص) جانباً لوجدناه يتصف بالعبقرية التي
نستطيع أن نثبت وجودها في حياته للناس جميعاً .

أيمان جديدة 1

ومن هذا الباب أيضاً استعمال هذا التعبير الذي تبدأ به بعض الاحتفالات باسم الله والوطن أو باسم الله والشعب أو باسم الله والعروبة أو قول القائل : أقسم بالله والوطن أو أقسم بالله وبالشرف أو بالقومية أو بحياة فلان أو بحياة أولادي ... ان هذه التعابير منبثقة في الأصل وفي البيئة الأوربية التي جاءتنا منها عن تأليه هذه القيم (الوطن، الشعب القومية ، ...) أو تعظيمها تعظيماً يبلغ حد التقديس ووضعها مع الله في مستوى واحد . في حين أن الإسلام يرى في ذلك كله اتجاهات وثنياً ، فالإيمان بالله هو القيمة العليا المطلقة التي لا تدانيها قيمة وكل ما سواه من القيم المحبوبة أو العزيزة أو المعظمة فرعية وثانوية بالنسبة إليه مهما بلغت منزلتها فلا يجوز أن تقرر معه .

ومن أمثلة ذلك أيضاً استعمال لفظ الايمان في غير مجال العقيدة على سبيل التوسع والتجوز كقول القائل أوؤمن بالوحدة أو بالقومية أو بالشعب . فان هذه الكلمة وإن كان معناها اللغوي التصديق بوجه عام قد خصصت للتصديق بالعقائد الدينية الأساسية فتقول أوؤمن بالله واليوم الآخر والنبوات ، فاستعمالها في هذه المواطن الأخرى منبثق عن تلك النظرة التي شرحناها والتي تنطوي على تأليه تلك القيم وإقامة أصنام جديدة في هذا العصر والتعبير السليم الذي ينسجم مع النظرة الإسلامية

هو أن تقول أو من بالله وأحب وطني وأثق بالشعب وأتمسك بالوحدة أو أتوق إليها وأسعى لتحقيقها .

هاتان حالتان ذكرناهما الحالة الأولى تكون فيها الألفاظ اصطلاحاً جديداً فحسب ولا يتضمن أي فكرة جديدة ، فيجوز استعمالها ، ومثلنا لذلك بالأحوال الشخصية مع ما أوردناه من ملاحظات على ذلك . والحالة الثانية هي أن يكون في استعمال الألفاظ والتعابير الجديدة أو المنقولة إدخالاً لمفاهيم جديدة وانطواء على نظرات أجنبية مختلفة تصل إلى حد الانحراف الأساسي عن الاتجاه الأصيل .

ومنالك حالة ثالثة هي أدق هذه الأحوال وأخطرها ، وهي نقل المفاهيم والأفكار من مذهب إلى مذهب ومن نظام إلى نظام ؛ فلكل مذهب ديني أو اجتماعي كالإسلام والمسيحية والشيوعية والديمقراطية تصنيف للمفاهيم والقيم ، ويقابل كل واحد منها تعبير يدل عليه ومصطلح لغوي يفيد ، ولذلك فانت مضطر حينما تريد أن تنقل المفاهيم والأحكام الإسلامية إلى أصحاب المذاهب الأخرى وإلى الذين عاشوا في بيئة تلك الأنظمة والمذاهب ولم يعرفوا إلا مفاهيمها وتصنيفاتها أن تستعمل ألفاظهم ومصطلحاتهم لتنقل إليهم مفاهيم الإسلام ونظمه ولتمكنهم من تصوره .

لا شك أن في هذه العملية خطراً إذا قام بها أناس لا

يملكون الوعي الكافي والمقدرة على فهم المذهب وتصور العقليتين والوقوف في الموقفين .

ومثال ذلك لو أردنا في بيئة السوفييت الشيوعية أو في البيئة الأمريكية الديمقراطية أن ننقل إليهم مفاهيم الإسلام ونظراته في الحياة بحيث نجعلهم يتصورون نظامه وأحكامه وفلسفته فلا يمكننا بآدىء الأمر أن نستعمل تصنيفنا الفقهي المعروف للأحكام إلى عبادات ومعاملات وتقسيمنا المعاملات إلى أبوابها المعروفة وتصنيفات علماء الكلام والعقيدة ونخاطب بها أناساً لهم مصطلحات أخرى وتصنيف آخر للوجود والقيم وللأعمال البشرية وللأنظمة الاجتماعية فينبغي أن نفهم تصنيفاتهم وتقسيماتهم ومقولاتهم ومفاهيمهم ، ثم نحاول عن طريق فهمهم هذا وعلى أسلوبهم أن ننقل إليهم مفاهيم النظام الإسلامي ، وقد يؤدي ذلك إلى تجزئة المفهوم إلى مفهومين أو دمج المفهومين في مفهوم واحد وكأنتنا نحاول بذلك أن نصب الإسلام في قوالب جديدة دون أن نغير مادته .

الديموقراطية والاشتراكية :

ليس الخطأ ولا الخطر الكبير في هذه العملية وإنما الخطر الكبير أن نأتي إلى مذهب معروف كالاشتراكية سواء قصدنا ما يسميه الماركسيون بالاشتراكية العلمية على حد تعبيرهم ، أو قصدنا مذهباً بعينه من المذاهب الاشتراكية المحددة أو إلى الديمقراطية باعتبارها مذهباً شاملاً له فلسفته ثم نزع أن تلك

ولكننا في مقابل ذلك لا نستطيع أن نقول أن الإسلام
ديمقراطي دون تحفظ وعلى الإطلاق وليس من حقنا ذلك .
فإن الديمقراطية باعتبارها نظاماً سياسياً في أوروبا اقترنت
بأفكار ومفاهيم عن الإنسان والمجتمع وانبثقت عن فلسفة لا
يقبلها الإسلام وقد تتعارض مع فلسفته ونظريته في كثير من
نقاطها . فالديمقراطية مبنية على فكرة أساسية هي أن الفرد
هو الأصل في الدولة وهي إنما خلقت لمصلحته وهو حرية
مطلقة في تصرفاته سواء في فعاليته الاقتصادية أو الخلقية أو
الفكرية ، والدولة مهمتها مقصورة على تنسيق حريات الأفراد
حتى لا تتصادم . إن هذه الفلسفة تختلف عن نظرة الإسلام
اختلافاً كبيراً ، فهي تؤدي إلى المساواة بين الإيمان والإلحاد
في مجال الفكر وبين الإباحية والتقييد في مجال السلوك الخلقي
وبين الرأسمالية المترفة الطاغية والتقييد لمصلحة الجماعة .
والإسلام لا يقبل التسوية بين هذه الاتجاهات ، ولا يمنح الحرية
المطلقة التي تؤدي إلى الباطل والرذيلة والظلم .

ويختلف الإسلام كذلك عن الديمقراطية في نقطة أخرى
أساسية : ذلك أن الشعب في الإسلام وإن كانت مصلحته
وسعادته هي هدف تشريعه ، وكان الناس فيه على اختلافهم
متساوين أمام الحق وكانت الشورى ومسؤولية الحاكم هي
الأساس في الحكم لكن المرجع النهائي هو الله وحده وهو مصدر
السلطة وإرادته المتجلية في القرآن كتابه المنزل هي الحاكمة ،

أما الديمقراطية فالشعب فيها مصدر السلطة وإرادته مطلقة وهي الحكم النهائي . نعم إذا أريد بمصدر السلطة أنه هو المرجع في تفويض السلطة إلى الحاكم وأن الحاكم يتسلم السلطة من الشعب لا من نفسه ولا بحكم الوراثة ولا من الله مباشرة فتلك نظرة الإسلام كذلك ^(١) ولكن الحكم الفاصل بين أفراد الشعب حكاماً ومحكومين حين الاختلاف وميزان الترجيح ومعيار الصحة إنما هو كتاب الله الذي حدد المعالم ورسم الطريق لأن الشعب نفسه يخطئ ويصيب ويضل ويهتدي ولكن الناس مع ذلك أي أفراد الشعب عامة هم الرقباء على الحاكم ، ولكل فرد منهم بالنسبة إلى الحاكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمصارحة بالحق والوقوف أمام الظلم . وليس الحاكم هو المرجع في تفسير مبادئ القرآن وفهم نصوصه بل المرجع في ذلك العلماء المختصون من أبناء الشعب عامة دون تقييد بالموظفين منهم أو الرسميين وقد رد الإمام علي رضي الله عنه مغالطة الخوارج حين قالوا لا حكم إلا لله لا حكم إلا للقرآن مجيباً إياهم أنه لا بد للقرآن من ترجمان وإنما ينطق عنه الرجال ^(٢) أي أنه لا بد من إنسان يمارس الحكم ولا بد من حكم البشر ومن مراقبة الناس لهذا الحاكم ومن أناس يفهمون القرآن ومقاصده ويطبقون أحكامه .

وخلاصة القول أننا إذا اعتبرنا الديمقراطية مذهباً اجتماعياً
 (١) هذا هو رأي أهل السنة بحسبنا (الدولة عند ابن تيمية) ص ١٨ .
 (٢) نهج البلاغة عن كلام له في التحكيم .

قائماً بذاته فليس لنا أن نقول انها من الإسلام أو أن الإسلام
يقبلها ويستسيغها ويتضمنها إذ هما مذهبان مختلفان في أصولهما
وجذورهما وفلسفتها ونتائج تطبيقهما. ولكننا إذا نظرنا إليها
على أنها إتجاه يحارب الفردية والاستبداد والإستئثار والتمييز
ويسعى في سبيل مصلحة جمهرة الشعب ويشركه في الحكم وفي
مراقبة الحكام وسؤالهم عن أعمالهم ومحاسنهم عليه ، فالإسلام
ذو نزعة ديمقراطية بهذا المعنى بلا جدال أو أن للإسلام
ديمقراطيته الخاصة به أي نظامه الذي يمنع استبداد الحكام
واستئثارهم ويمكن الشعب من مراقبتهم ومحاسبتهم .

الاشتراكية :

ومثال آخر من هذا الباب هو مثال الاشتراكية فقد راج
استعمال هذا التعبير في الرأي العام واستعمله عدد من الباحثين
للدلالة على ما في الإسلام من عدالة شاملة لأفراد المجتمع لانتص
فئة من الناس دون غيرهم . وكان هذا الاستعمال موضوع
خلاف شديد بين المحيزين والممانعين . وما قلناه عن
الديمقراطية ينطبق على الاشتراكية فإذا فهمنا من الاشتراكية
مذهباً شاملاً لفلسفته ومفاهيمه ونظامه الإقتصادي كالشيوعية
التي هي أحد أشكال الاشتراكية فإن الإسلام شيء
والاشتراكية شيء آخر ولا يمكن أن يقال بهذا المعنى أن
الاشتراكية من الإسلام لأنها في هذه الحال مذهبان مختلفان
لكل منهما مبادئه وأسسها . ولكن للاشتراكية معنى آخر

وقد أصبح رائجاً منتشراً في العالم وهو اشراك جميع أفراد الشعب في المنافع والمصالح وعدم استئثار فئة من الناس بالمنفعة وتدخل الدولة في تقييد الفعاليات الاقتصادية - كتحديد حقوق الملكية وثمارها - تقييداً يؤدي إلى العدالة في توزيع الثروة وإلى تكافؤ الفرص بين الناس بحيث يعيشون على مستوى من الحياة يؤمن لهم الحاجات الإنسانية المادية والمعنوية . هذا هو المعنى الشامل لأنواع الاشتراكيات وإن اختلفت أساليبها في الوصول إلى هذه الأهداف . والإشترابية بهذا المعنى ليست مذهباً كاملاً ، إنما هي إتجاه نشأ في مقابلة طغيان الرأسمالية في أوروبا واستئثار أصحاب رؤوس الأموال نتيجة الأخذ بالمذهب الحر في الإقتصاد الذي يعطي للأفراد الحرية المطلقة في المجال الإقتصادي ولا يسمح للدولة أن تتدخل ولو أدى ذلك إلى طغيان طبقة على طبقة أو إلى نشوء طبقة فقيرة محرومة . والاشترابية بهذا المعنى لا منافاة بينها وبين الاسلام بل إن الاسلام على طريقته الخاصة يتجه في هذا الاتجاه المؤدي إلى تعميم النفع وإقامة العدالة وإنصاف الناس بل يحيز تدخل الدولة في فعاليات الأفراد الاقتصادية وغير الاقتصادية إذا اقتضت الضرورة أو المصلحة العامة ذلك ^(١) . نعم إن للإسلام أسلوبه وطريقته الخاصة به في

(١) راجع كتابنا (الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) حيث نجد تفصيلاً لهذا الموضوع .

التنظيم الإقتصادي ولكننا إذا صنّفنا المذاهب صنفين أحدهما
 مبني على مصلحة الفرد وحرية المطلقة وهو المذهب الفردي
 والآخر مبني على مصلحة الجماعة أو المجتمع كله وهو المذهب
 الجماعي أو الإجتماعي فالإسلام مع مراعاة التوفيق بين مصلحة
 الفرد والجماعة هو أقرب إلى الصنف الثاني . وهذا الإتجاه
 تدل عليه في اللغات الأوربية كلمة Socialiste وترجمتها
 الدقيقة إلى العربية الاجتماعية ولكنها ترجمت في أوائل هذا
 العصر بالإشتراكية وهي ترجمة صالحة أيضاً لأنهم - مشتقة من
 مادة (ش ر ك) وتفيد المعنى المقصود من اشتراك أفراد
 المجتمع بالمنافع والفوائد وهي المادة التي منها الشركة والإشتراك
 وصيغت بإضافة ياء النسب وطاء الإسمية للدلالة على المذهب
 كالإمامية والمالكية . إن القول بأن الإسلام يخالف هذا
 الإتجاه الذي اصطلح على تسميته بالإتجاه الإشتراكي معناه في
 عرف الناس العام إن الإسلام يؤيد الظلم الرأسمالي والإستثمار
 والطفيان . ذلك أن قوام الإشتراكية وجوهرها وعنصرها
 الأساسي جواز تدخل الدولة في تقييد فعالية الأفراد الإقتصادية
 وتقييد الملكية وما ينتج عنها من حقوق لمصلحة المجتمع منعاً
 للظلم وإنصافاً للناس وإشاعة للرحمة والخير بين الناس هذا هو
 الصميم من جوهر الإشتراكية وما وراء ذلك من التفصيل
 كالتأميم أو غيره أمور مختلف عليها بين أصحاب هذا الإتجاه .
 والإسلام كما قلنا يقول بالتدخل ومن ذلك منع الدولة للاحتكار
 وإلزامها تجار الأقوات أن يبيعوا بسعر عادل أيام الجماعة

وأخذها من أموال الأغنياء مالا غير الزكاة إذا كانت الدولة في حالة حرب للدفاع عن حوزة المسلمين أو كان في الناس فقراء ولم تكفهم الزكاة أو غير ذلك من الحاجات . وقد أتينا بهذه الأمثلة لأنها كانت معروفة ولها ذكر في كتب الفقهاء والأمر ليس مقصوراً عليها ولا محصوراً فيها وإنما هي للتمثيل فقط وليبيان أن الإسلام يقول بتدخل أولى الأمر أي الدولة لإحقاق الحق بل للرحمة بالضعفاء ولو كان ذلك فوق العدل وأكثر من العدل . ولا يتصور بحال من الأحوال أن تؤدي أحكام الإسلام إلى موت فريق من الناس جوعاً أو وقوعهم فريسة للبؤس والفقر والمرض وتنعم فريق آخر من الناس في الوقت نفسه بالملذات والطيبات والكماليات لأن هذا مخالف لأهداف الإسلام الواضحة في الكتاب والسنة في مثل قول الرسول ﷺ « المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقوله « ان قومًا ركبوا سفينة فاقسموا فصار لكل رجل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ما تصنع قال هو مكاني أصنع فيه ما شئت . فان اخذوا على يده نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا . » وقوله أيضاً « ان الاشاعرة كانوا اذا أمحلوا أو افتقروا جمعوا ما عندهم واقتسموه بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم » وحديث (من كان معه فضل ظهر ... الخ) المتقدم ذكره . ومن المعلوم الثابت ان نظام الاسلام لا يقبل ان يكون في المجتمع من يموت جوعاً او يحتاج مهما يكن دينه اذا كان

أبعاً لدولته ولذلك كان الخلفاء الراشدون يخصصون من بيت مال ما يسد حاجة الفقراء من الكتابيين غير المسلمين كما كانوا يسدون حاجة الفقراء من المسلمين .

ولم يبق هذا الاتجاه كلاماً عاماً ومواعظ اخلاقية بل فصله لفقهاء احكاماً تنفذ ويعمل بها الحكام ويستفيد منها الناس ويجدها الباحث مفرقة في كتب الفقه في أبواب عديدة كما يجدها في القواعد العامة . وألصقها بموضوعنا الضرر يزال، ولا ضرر ولا ضرار ، ويتحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام ، ومثلوا لها بوجوب نقض الحائط المملوك الذي مال إلى طريق عامة دفعاً للضرر العام . ومن هذا الباب جواز الحجر على البالغ العاقل الحر في ثلاثة مواضع عند أبي حنيفة المقي الماجن والطبيب الجاهل والمكاري المفلس ، وعلى السفه مطلقاً عند صاحبين دفعاً للضرر العام ^(١) وليس الحجر الا تقييد حرية المحجور عليه في أمور هي في الأصل من حقه شرعاً دفعاً للضرر الذي يمكن ان يلحقه هو بنفسه أو أسرته أو المجتمع العام . ويذهب ابن تيمية الى أبعد من هذا فيستنتج من كون بعض الصناعات كالطب والنجارة ضرورياً جواز إجبار أصحابها والمختصين بها على العمل إذا امتنعوا وكان الناس بحاجة الى صناعتهم ويعطون اجر المثل ^(٢) .

(١) راجع القواعد العامة في كتاب الاشباه والنظائر لابن نجيم ولا سيما قاعدة الضرر يزال .

(٢) راجع كتابنا (الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) وهذا ما يسمى بالفرلية Socialisation du travail

ومع كل ما ذكرنا من وجود نزعة توافق الديمقراطية والاشتراكية في الاسلام فاننا لا نرى أن نجعل هذه الشعارات البارزة في حياتنا وهذه العناوين هي عناوين مجتمعاتنا ودولنا التي نلخص بها نهضتنا ونصف بها حضارتنا لأنها حينئذ تكون عناوين خاطئة وتلخيصاً مشوهاً إذ تشير الى بعض صفات الحضارة الاسلامية وتهمل صفات ومقومات أخرى أهم منها بل نرى إن في الإستمرار في هذه الخطأ خطراً على الإسلام لما في ذلك من إحداث التباس بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم مذاهب أخرى تختلف عنه اختلافاً أساسياً .

إننا نفعل عن مبدأ اسامي خطير هو ان للأنظمة السياسية والاقتصادية في كل بلد وفي كل حضارة أساساً اعتقادية تبنى عليها وليست هي الامظاهر خارجية لعقيدة او فلسفة تؤمن تلك الحضارة وتقوم عليها وليست هذه الأنظمة إلا تعبيراً سياسياً او اقتصادياً لتلك الفلسفة وتلك الحضارة . فاتخاذ الاشتراكية عنواناً لحضارة وصفة بارزة مميزة لدولة مبني على فلسفة تعتبر الانتاج محور الحياة والمادة أصل الوجود وليس العلم والعقل إلا خادمين للانتاج وتحسين مستوى الحياة المادي وليس الفرد الإنساني إلا جزءاً من هذه الآلة الضخمة التي هي المجتمع ممثلاً في الدولة يخضع لأوامرها ويبقى حتى في مأكله ومشربه ومسكنه وفيما يسمع من أخبار او يقرأ من كتب وصحف تحت رقابتها الشديدة . إن وراء هذه الأنظمة عقائد انبثقت هي عنها ومفاهيم ونظرات في الحياة

تتصل بها اتصال الفروع بالجذور ولذلك فاننا حين نجعل هذه
الشعارات عنواناً وحيداً لنهضتنا وفكررها وحدها على مسمع
الجمهور إنما نعلن ضمناً أننا ندين بتلك العقائد ونأخذ بتلك
النظرات والمفاهيم في الحياة وأنها بنتيجة ذلك نتخلى عن
مفاهيمنا وعقائدنا ونظرتنا الى الحياة المستمدة من ديننا وتراثنا
الحضاري او على الأقل نغفلها ونهملها . و فرق كبير بين أن
نتخذ من التشريعات ما يكفل العدالة في توزيع الثروة وما
يكفل حياة العاجزين عن كسب ما يكفيهم وبين ان نجعل
عنوان نهضتنا الأول وصفتها الأبرز هي الاشتراكية وبذلك نجبر
الناس الى أن يجعلوا هدفهم الأول في الحياة رفع مستوى
الحياة المادية وتحسين المعيشة دون أن يكون لرفع مستوى
الأخلاق وللقيم الخلقية والروحية أي مكان في حياتهم وفي
نظامهم فنترك بذلك الفراغ لشتى العقائد الالحادية والمذاهب
المادية والاباحية . إن ثورة الاسلام الاجتماعية شاملة تبدأ من عقيدة
الايمان بالله والمساواة بين الناس أمامه لأنهم من أصل واحد وهم
عباده وتنشق عن هذه العقيدة ومعانيها ثورة اجتماعية غايتها
إقامة العدالة بين الناس وتحقيقها من الناحية الاقتصادية بحيث
لا يعيش فريق في البذخ والترف وآخرون في الشقاء
والحرمان بل تأخذ الدولة من أموال الأغنياء ما تسد به حاجة
الفقراء والعاجزين عن الكسب فللناس حقوق في المال ولا
كان خاصاً .

هذه اشتراكية ليست غايتها المال وتوزيعه انها فرع
لثورة روحية خلقية هدفها ارضاء الله بتحقيق العدل بين
عباده والاحسان إليهم في نظام خاص فهي مسبوقة ومقتربة
بدعوة خلقية روحية . إنها إذن لا تصلح أن تكون العنوان
الشامل المعبر عن نظام الاسلام ودولته وحضارته ولكن في
الاسلام من جهة أخرى ما يقابلها ويحقق الأهداف المشروعة
منها. إن المهم في كل هذا أن تحفظ للاسلام خصائصه وذاتيته
بحيث لا يلتبس بغيره وان نعرف بعد ذلك كيف ننقله
للآخرين بحسب مفاهيمهم الشائعة ونميز ما بينه وبين المذاهب
الأخرى من موافقات ومفارقات .

تصحيح المفاهيم

إن عملية تصحيح المفاهيم المشوهة استمرت في جميع
العصور الإسلامية فكان كل تشويه للحياة الإسلامية أو للمفاهيم
الإسلامية يصاحبه ويقابله أو يتبعه تصحيح يعيد الأمر إلى
نصابه . فكان حماة العقيدة الإسلامية من العلماء في كل عصر
يردون المفاهيم الدخيلة والأفكار المدسوسة والانحرافات
الحادثة . وألفت مؤلفات كثيرة في مختلف العصور لبيان البدع
المستحدثة في الدين وانكارها والرد عليها . وقد قسموا الأمور
المستحدثة أو المبتدعة إلى أقسام فأما ما كان منها متعلقاً
بالعادات كأنواع الأطعمة والأشربة والألبسة وأساليب العمران
وما إلى ذلك فليست من باب البدع المنكرة في شيء اللهم إلا

أن تكون مما يدخل تحت نص شرعي يتضمن الأمر بفعل أو
النهي عنه وما سوى ذلك مترك للناس كاستعمال الآلات
والأدوات المستحدثة كآلات الحراثة أو الصناعة أو وسائل
النقل والمواصلات وغير ذلك مما تتجدد أشكاله وأنواعه في
شئ مرافق الحياة فهذا لا يطلق عليه لفظ البدعة بالمعنى
المذموم بل هو على عكس ذلك مما يحمد ويستوجب شكر الله
لما فيه من الخير لبني البشر. ومن المستحدثات المبتدعة ما يتعلق
بأمر العقيدة وهو أخطرها أثراً وأسوأها نتيجة وهذا النوع
لا يقتصر في رأينا على العقيدة بالمعنى الضيق لهذه الكلمة كما
كان يفهم منها بل يتناول جميع الأفكار والاتجاهات الأساسية
والمبادئ العامة للإسلام ومفاهيمه في جميع آفاق الحياة .
والنوع الثالث من المستحدثات المبتدعة يتعلق بالعبادات والقاعدة
في العبادات أنها توقيفية أي يوقف فيها عند النص لا يزداد فيها
ولا ينقص .

إن هذا التصحيح كان يجري في كل عصر على يد العلماء
وأئمة الإسلام الذين كانوا يتنبهون للانحرافات الدخيلة أو
الطارئة وقد تكثر هذه الانحرافات والتشويهاة في بعض
العصور فيقيض الله لذلك من المجددين من يضطلعون بعبء
هذا التجديد برد الدخيل وتصحيح الأفكار وتقويم الإعوجاج
 وإعادة العقائد والمفاهيم إلى أصلها من الكتاب والسنة . ومن
هؤلاء المجددين الكبار شيخ الإسلام ابن هذا البلد (دمشق)

والذي تضم أرض جامعتها^(١) رفاته وهو من أعظم العقول الإسلامية التي برزت في تاريخ الإسلام وكان متعدد نواحي الجهاد وأهم صفحات جهاده عمله في صد الهجمات والإنحرافات عن الإسلام وعقائده أمام العقلية اليونانية والإتجاهات الباطنية وتصحيحه للمفاهيم وإعادةتها إلى أصلها من الكتاب والسنة والإستعانة بفهم الجيل الأول من الصحابة سواء في ميدان الفقه أو العقائد أو العبادات .

نحن اليوم أشد ما نكون حاجة إلى هذا التصحيح سواء أكان يتناول الجوانب التي تأثرنا فيها بالفكر الأوربي أم التي تأثرنا فيها بعقلية الشرق في العصر الماضي والتي هي مزيج من العقلية الإسلامية والعقلية اليونانية والفارسية والهندية وغيرها مما سبق الإسلام ، ذلك المزيج الذي تردى في أشكال ضيقة جامدة مختلطة مضطربة . نحن في حاجة إلى بعث لأصول الإسلام وإلى عودة إلى مصادره الأولى وإلى ما فهمته أجيال من العلماء من الفهوم الصحيحة في كل عصر ولا سيما فهم الجيل الأول من الصحابة الذي حفظت لنا كتب الحديث والفقه الشيء الكثير منه لنفهم في ضوءها وفي ظروف مشكلاتنا القائمة نصوص الكتاب والسنة . نحن في حاجة إلى أن نبني تفكيرنا من جديد ونتخلى عن كثير من الأفكار التي ظنناها من البديهيات واستسلمنا لها وربينا عليها في تعليمنا الابتدائي والثانوي والجامعي سواء في حياتنا الفكرية أو السياسية أو الاقتصادية انها عملية ضخمة ولكنها ضرورية وجذرية أساسية . وحياتنا ومساهمتنا الفعالة في ميدان الحضارة الإنسانية متوقفة

(١) يقع قبر ابن تيمية رحمه الله بين مباني جامعة دمشق .

عليها . فالبشرية اليوم أمام مذاهب عديدة وفي كل مذهب منها جانب من الحق مقترن بجانب من الباطل ، في كل منها محاسن ومساوئ ولا يصلح واحد منها لحل المشكلات الإنسانية حلاً أساسياً موحداً منسجماً . والإسلام هو الذي يستطيع أن يجمع بين الرقي المادي والخلقي الروحي في تناسق وانسجام وأن يقيم للتشريع الظاهري وللأنظمة الاجتماعية أساساً في النفس والضمير وأن يجعل للروح التي تهذب وتنمي فعاليتها سنداً مادياً واقعياً ويفسح للفرد المجال أن يرقى مادياً وروحياً ولكن في إطار اجتماعي غير استبدادي أو تحكيمي قسري ويجعل الحياة وحدة لا تتجزأ تتصل جوانبها المتعددة من السياسة والاقتصاد إلى الأخلاق والعبادة ومن العقيدة إلى التشريع وتنسجم جميعاً في هذه الوحدة الحيوية من غير تداخل ولا التباس . وإذا كانت المذاهب المختلفة من دينية واجتماعية يرمي كل منها إلى هدف حيوي هام كالعدالة الاجتماعية أو الحياة الروحية أو حرية الفرد الإنساني فإن الإسلام جمع هذه الأهداف جميعها ونسقها وأقام التوازن فيما بينها وربطها جميعاً بقوة تجمعها وهي الله الخالق .

وإن من واجب المسلمين - علمائهم ومثقفهم ومؤسستهم العلمية أن يعملوا على تصحيح المفاهيم وإبراز الإسلام في صورته الصافية حتى يقف بقوة أمام الأنظمة القائمة اليوم في العالم . وحق يتكون وعي إسلامي يحمل رسالة الإسلام فيحمل إلى الإنسانية السعادة والسلام وهذا ما سنعالج بحثه في الفصل التالي .

نحوي إسلامي جديد^(١)

تقف أكثر البلاد الإسلامية في هذه الحقبة من الزمن موقفاً متشابهاً ، وتواجه في حياتها مشكلة أساسية تقتضي الحل ، ذلك أنها خرجت من معارك التحرر من الاستعمار والنفوذ الأجنبي في المجال السيامي ، واجتازت كذلك مرحلة التحرر من عهد الانحطاط ، واستقبلت في تطورها هذا مرحلة جديدة هي مرحلة البناء . فما هي عناصر هذا البناء وما شكله وما هندسته وتخطيطه؟ وما هي الحضارة التي يجب أن تقيمها وتعلمها الفراغ الحادث من انهيار الهيكل القديم من جهة ، والهيكل الذي فرضه المستعمر عليها يوم كان محتلاً لأرضها ؟ إن مرحلة الوعي الذاتي ومرحلة البناء والإبداع هي من أخطر المراحل التي تمر بها الأمم وأدقها ، وهي المرحلة التي تمر بها بلادنا العربية كما تمر بها سائر الشعوب الإسلامية .

إن لهذه المشكلة تاريخاً طويلاً لن نتحدث عنه ، ولكن لا بد لنا من استعراض الفصل الأخير من قصتها ، والامام بالعهد

(١) ألقى هذا البحث في قاعة المحاضرات في الأزهر .

الذي سبق مرحلة الوعي هذه حتى نستطيع فهمها فهماً صحيحاً
والسير في توجيهها على بصيرة وهدى .

عهد الانحطاط

لقد سبق النقاء بالحضارة الأوروبية في العصر الحديث ، عهد
تشوهت فيه صورة الإسلام وتغيرت معاملته وقلبت قيمه وضيقت
مفاهيمه وأسيء تطبيقه . إن الإسلام الذي عرفناه في عهده
الأول الزاهر : قوة فعالة محررة للإنسان من الخرافة والوثنية
ومن الظلم والاستبداد ، قفزت به الى صعيد جديد للانسانية ،
وأفق واسع للحضارة التقت عليه شعوب وعبقريات ، فأقامت
معاهد للعلم ومعالم للعدالة ، وفسحت للنفس مدارج السمو
والارتقاء في إطار دولة ، الراعي فيها والرعية يعتبرون أنفسهم
عباداً لله ، يأترون بينهم بمعروف ويتشاورون ، لكل منهم
حقوقه وعليه واجباته . إن هذا الإسلام انقلب الى جدلية
كلامية في العقيدة ، وتفكير خرافي في النظر الى الكون ،
وعبادة سلبية اعتزالية شكلية ، وصوفية أعجمية تعزل الحياة
وتفر من معركتها ، واستبداد في الحكم ، وركود في الحياة
الاقتصادية ، وشكلية فقهية ونصوصية ضيقة بعيدة عن الفهم
الاسلامي الأول . فتعطل جهاز الاسلام الفعال عن العمل بسبب
ما شابه من الشوائب ، وما داخله من غريب العناصر ، وما
أصابه من تعطيل بسبب العقول القاصرة والأيدي التي لم
تحسن الاستعمال .

واقترنت هذه الحال التي تردى إليها العالم الإسلامي - والعالم العربي في جملة - بنظام للتعليم متناسب معها يثبتها في وضعها ، ويدفعها إلى الاستمرار على ما هي عليه بدلاً من أن يكون سبيلاً لانقازها .

لقد كانت طريقة التعليم قائمة على الحفظ واستظهار العبارات ، فكان طالب العلم يحفظ عدداً من المتون ، أي من النصوص الموجزة في كل علم ، في عبارات مكثفة مرصوفة مبلورة دون أن يفهمها ، ثم ينتقل في طور آخر إلى تفهمها في شروح متدرجة في التفصيل والبسط .

ما المادة العلمية ، فكان علم التوحيد أو العقيدة الإسلامية مزيجاً من القضايا الفلسفية والكلامية التي عرضت للمسلمين حين اصطدموا بالفلسفة اليونانية بعيداً عن أن يبعث عقيدة القرآن قوية حية في النفوس ، وأما الفقه الذي كان مفخرة الإسلام ، وعلى أساسه قامت الفتوحات ونظمت البلاد الواسعة أحسن تنظيم ، فكان يدرس في نصوص ابتعدت كثيراً في بعض الأحوال عن أصولها من الكتاب والسنة من جهة وعن وقائع الحياة من جهة أخرى ، وفي جو مذهبي ضيق ، وغدت تلك النصوص التي هي آراء الفقهاء خلال العصور وخاصة المتأخرة منها هي المرجع النهائي للأحكام .

وأما أصول الفقه فكان يقرأ لا للاستعانة به على استنباط الأحكام بل للاستظهار به في تأييد الآراء المذهبية الخلافية ،

الخلافية ، وكان يقرأ في كتب عقيدة الأساليب بعيدة جداً
عن توليد الملكة الفقهية .

وأما القرآن فقد أصبح بينه وبين المسلمين حجاب كثيف
من الإسرائيليات والمذاهب الكلامية والشروح اللفظية والنكت
البلاغية والمسائل الفلسفية ، التي حشيت بها أكثر التفاسير
خلال العصور ، وأخذ كل واحد منها لون الثقافة الغالبة على
العصر الذي ظهر فيه المؤلف الذي كتبه .

وأما الحديث فقد قلت العناية به ، لأن قراءته كانت للتبرك
لا لاستنباط الأحكام ، بعد أن سد باب الاجتهاد .

وأما علوم العربية فقد أهمل منها اللغة والأدب ، وهما
مفتاح الكتاب والسنة ، وبهما تفهم نصوصها ، وعني الناس
بصناعة النحو لحاجتهم إليها في الاستدلالات المذهبية في الفقه
والكلام ، وعنوا بنوع من كتب البلاغة هي أبعد ما تكون
عن تذوق البلاغة وأساليبها العربية ، ككتاب التلخيص
للقرطبي وشروحه المعقدة التي هي أقرب إلى المنطق والفلسفة
منها إلى الذوق الأدبي .

وأما آفاق العلوم الأخرى التي فتحها القرآن للناس بتوجيه
نظرهم إلى آيات الله في الكون والإنسان من العلوم الطبيعية
المختلفة ، التي ازدهرت بازدهار الحضارة الإسلامية فقد غطي
عليها النسيان وأبعدها عن الأنظار بعد الناس عن معاني القرآن .

هذا وإن ما وصفت به عصر الانحطاط من صفات ، وما ذكرته عن طرائق التعليم ومادته ، إنما هو من قبيل الحكم العام الغالب ، ولا يمنع هذا أنه لم يخل عصر من العصور الإسلامية من بقع ضوئية نيرة ومن أفراد لم تقطع صلتهم بينابيع الإسلام الأصيلة ، يستمدون منها الفهم الصحيح ويسرون على النهج القويم .

الالتقاء بالحضارة الغربية : عصر الاستعمار :

في مثل هذه الحال التي وصفت كان التقاؤنا بحضارة الغرب الناشطة التي كانت تكتسح بموجتها الاستعمارية والحضارية بقاع الأرض . لقد كنا كما يقول المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي الجزائري في حال القابلية للاستعمار ، وكانت شعوب أوروبا في حال الاستعداد للاستعمار .

فكان عصر الاستعمار الذي امتد في البلاد العربية والإسلامية عامة ، كما امتد في غيرها أيضاً مدة طويلة تختلف من بلد إلى بلد ، وكان له من النفوذ المعنوي والحضاري امتداد زمني أوسع مما امتد إليه الاحتلال الأرضي المادي ، وليس حديثنا الآن عن الجانب السياسي لهذا العصر وما أحدثه الاستعمار من يقظة سياسية وثورات شعبية انتهت في أكثر هذه البلدان إلى التحرر والاستقلال ، ولكننا نريد أن ننظر إليه من الجانب الفكري والحضاري .

لقد كان الذهول والاندهاش أول رد فعل لهذا اللقاء بين مجتمعنا الراكد الساكن الملتف حول نفسه ، العاكف على جزئيات الحياة في آفاقها الضيقة ، والمجتمع الأوربي الهائج المائج بعقله المتفتح ، وغاياته النفعية المادية وقدرته الصناعية وقوته العسكرية . ولكن هذا الذهول ما لبث أن خفت حدته وتكشف عن نزعتين أو اتجاهين :

أحدهما : الإتجاه المحافظ المغالي في محافظته ، يدافع عن الكيان كما هو بخيره وشره ، بأصيله ودخيله ، بما فيه من عناصر أساسية جوهرية ثابتة وعناصر ثانوية مؤقتة ، لا يقبل في ذلك صرفاً ولا عدلاً ولا يشعر بأن ثمة مشكلة أو مشكلات تتطلب منه حلاً .

أما الاتجاه الثاني : فقد كانت تفرضه سنة الله في المجتمع فقد بدأ المجتمع الإسلامي يأخذ عن الغرب وينقل ، وطلق يقتبس ويقلد ، مبتدئاً في ذلك بنقل المظاهر ، وتقليد الأشكال ، واقتباس الماديات دون أن يكون ذلك التقليد عن وعي وتمييز بين ماهو أسامي أو غير أسامي من هذه الحضارة بين ما له ظروفه الخاصة في الغرب ، وما هو إنساني عام أو ما له جذور محلية لا يعيش دونها إذا نقل .

ثم انتقل هذا الغزو من الظواهر إلى البواطن ، ومن الماديات إلى المعنويات ، ومن السطوح إلى الأعماق ، ومن الآلات والمرافق إلى الأفكار والمفاهيم ، ومن العادات إلى القيم

والتأييد الخلقية ، وانقلب ذلك التقليد السطحي غير الواعي
بالتدريج إلى تقليد يعني ما يصنع إلى حد ما ، واشتد الغزو
وأعقب الاحتلال الأرضي أو سبقه أحياناً غزو فكري
حضاري ، واقترن بالالتحاق السياسي التحاق البلاد العربية
والإسلامية بحضارة أخرى غريبة عنهم ، ودب فيها وعي
جديد ولكن لذاتيتهم بل لذات غريبة حلت فيهم بقدر ما كان
ذلك في الوقت نفسه إبتعاداً عن حضارتهم الأصلية وخصائص
فطرتهم التي كوَّنها التاريخ فيهم .

إن هذا الغزو الحضاري أحدث في المجتمعات الإسلامية
- ومنها العربي - أزمة جذرية عنيفة وثورة نفسية فكرية ،
فكان الشك أو الجحود لأسس حضارتنا ومعتقداتنا ولقيمنا
ومفاهيمنا وتاريخنا . وغمرت هذه الموجة من الشك ولا تزال
طبقة كبيرة من المثقفين في حدود متفاوتة بتفاوت تفاعلها في
نفوسهم . وكان ذلك طبيعياً في زمن جاءهم فيه النور من
نافذة واحدة هي نافذة الغرب ، وكانت الإسلام محجوباً عنهم
بجواجز من مخلفات العصور وتشويهها . ولذلك كانت هذه
الثورة أشد ما تكون في نفوس بعض الناشئين في الثقافة
القديمة - ثقافة عصر الإنحاط الذي وصفنا - بسبب شدة
الصدام والصراع الحادث في نفوسهم بين الصورة المشوهة
الضيقة الأفق التي تلقفوها في بيئتهم الثقافية ، وعرفوها على
أنها هي الإسلام ، والصورة الحية الناضرة الواسعة الأفق التي

واجتهت بهم الحضارة الغربية . وكأنهم أرادوا بالتعبير عن
ثورة نفوسهم على الثقافة القديمة والحضارة الموروثة أن يرفعوا
عن أنفسهم معرة نقص توهموه ، ويردوا على ما يشعرون به
من غضاضة الإنتماء إلى تلك الثقافة ، ويظهروا بمظهر من فهم
الجديد ووعاه ووقف موقف الرائد المرشد من قومه وأهله (١)
والأسماء الكبيرة المعبرة عن هذه المرحلة والدالة على هذا
النوع من التفاعل مع حضارة الغرب في نهضتها الحديثة منذ
خمسین سنة كثير منها - إن لم يكن أكثرها - من هذه الفئة
من الناس . ومن الغريب أن لهذا النوع بقايا متخلفة ظهرت
الآن وأدركت ، فكأنهم ولدوا بعد حمل طالت مدته ،
وظهروا في أيام انقضت فيها تلك المرحلة فجاءوا كثر ولى
أوانه فلا تزال تحمل إلینا المطابع كتباً يصبر مؤلفوها على أنهم
من العلماء أو من خريجي الأزهر ، ليثبتوا في كتبهم براءتهم
من الأزهر وثقافته وليثوروا ، حين هدأت الثورات ، على
الأسس التي قامت عليها الثقافة الإسلامية أو حضارة الإسلام
حتى في أوج ازدهارها وأنصع صفحاتها ، بل منذ عصور
الإسلام الأولى . ولكننا لا نستطيع أن ننكر كذلك ، أن
جمهرة المصلحين المجددين - بحق - كانوا كذلك من هذه الطبقة
التي نشأت في الثقافة القديمة فكانوا أقدر على الإصلاح والتجديد
والتمييز من غيرهم .

(١) هذه الظاهرة هي التي تبدو في كتب طه حسين الأولى وفي كتب
القصيمي وبعض مؤلفات خالد محمد خالد ومحمود أبو رية وأمثالهم على
تفاوت في الزمن ومراحل التطور وظروف التفاعل الشخصي .

خصائص هذه المرحلة

لقد كانت لهذه المرحلة - مرحلة النقل والتقليد والغزو الفكري - خصائص متعددة :

١ - أنها كانت تقوم أيضاً على أساس نفسي من الإعجاب بالغرب وإكباره ، بل تقديسه والإستشعار بالنقص .

٢ - ولذلك كانت تقوم أيضاً على الأخذ بالمثل العليا التي اتخذها الغرب مثله وغاياته في الحياة ، واتخاذ قيمه في الأخلاق ومقاييسه في الحياة أساساً لحياتنا ، بل اتخذها مقاييس وقيماً نقوم بها تراثنا وحضارتنا وديننا .

فكثرة الإنتاج ، ووفرة المال ، وتحقيق اللذة ، ورفع مستوى الحياة المادية ، والحرية التي لا تقيدتها الأخلاق ، والعلمانية أي إقصاء القيم الروحية الدينية عن الحياة ، كل أولئك غايات أساسية للحياة . وليست الديمقراطية الغربية والإشتراكية الشيوعية إلا مركبات متنوعة لتلك العناصر والقيم وأشباهها . هذه هي القيم التي بها نصصح الأشياء ، ونقوم الأعمال ونزن المذاهب .

٣ - وعن هذا الطريق انتقلت إلينا أفكار خاطئة قبلناها على أنها بديهيات مسلمة وزينناها بالفاظ أحطناها بهالة من السحر ، كالتقدمية والتطور والتجديد ، وقبحنا ما يخالفها بالفاظ جعلناها منفرة .

ونقلنا عن الغرب مشكلات نشأت في ظروف تاريخية خاصة به في مراحل تطوره. فجعلناها مشكلات لنا ، وهي ليست كذلك في الحقيقة ، أو لم تكن كذلك يوم نقلناها على الأقل . ومن هذا القبيل مشكلة الصراع بين الدين والعلم أو بين رجال الدين ورجال العلم ، ومشكلة الدين والمدرسة أو العلمانية . وفهمنا كثيراً من الأمور من خلال مفاهيم حضارة الغرب ، فللغرب مفهوم خاص للدين تكون من ظروفه التاريخية من جهة ، ومن طبيعة ديانتها من جهة أخرى . قد تكون لنا مشكلات مشابهة ولكن ظروفها مختلفة وطبيعتها وطريقة حلها مختلفة أيضاً .

(٤) ولقد كان من خصائص هذه المرحلة أن بعثت الحركة والحيوية فينا على كل حال وكانت المحرض على السير وعلى التأمل والتفكير وعلى تغيير الحال . وقد أحدثت وعياً مبدئياً وإن كان هذا الوعي أجنبي اللقاح غريب المصدر . وكانت له في أول الأمر وفي بعض الأجيال مظاهر منحرفة انحرفت عن العروبة وخصائصها كما انحرفت عن الإسلام في مبادئه واتجاهاته ، ولا تزال عقابيل هذا المرض وآثار هذه التبعية للغرب بادية حتى اليوم في كثير من نواحي تفكيرنا وأدبنا وفتنا وعاداتنا الاجتماعية . وهذا الإنحراف عن جادة العروبة ونهج الإسلام ، بل عن نهج الأديان السماوية كلها ، كثيراً ما يخفى ويستتر ، ذلك ان الدعوة إلى الإلتحاق بالأجنبي في الأرض ، أي إلى الإحتلال أو استمراره خيانة فاضحة ، ولكن الدعوة

إلى الإلتحاق في الفكر والحضارة وإلى الإحتلال الفكري كثيراً ما تظهر بمظهر التحرر أي التحرر من الماضي ، ومظهر التقدم والجدة . وهذا الخفاء يشتد حينما يفصل أصحاب هذه الدعوة من الطبقة المثقفة بين الأمرين ، فيحاربون الإحتلال المادي ويدعون إلى التحرر السياسي ، ويدعون في الوقت نفسه إلى الإحتلال الفكري والإلتحاق العام بالأجنبي واحتذاء مثله وحضارته ، وكأنهم بذلك يمهدون لأنفسهم ليحتلوا مكان الأجنبي في القيادة ولكن بالروح نفسها التي كان يحكم بها وبيادته وفلسفته ونظرته إلى الحياة .

لقد كانت المادية بشق مذاهبها والاحاد في مختلف صوره من آثار هذا الوعي المنحرف ، ومن مظاهر نفوذ حضارة الغرب وتأثيره الفكري الممتد في حياتنا . ومن هذه المظاهر أيضاً : انتشار كثير من المفاهيم الخاطئة في الحياة التي هي أثر من آثار انحلال بعض عرى المجتمع الغربي ، أو الاتجاهات الخاطئة لحضارته أو ضعف مؤسساته أو تنظيماته الاجتماعية ، وهي في الوقت نفسه مجافية للمفاهيم العربية الصحيحة ومنافية لمبادئ الإسلام . ومنها أيضاً عرض تاريخنا وعقائدها ومؤسساتنا الاجتماعية من خلال هذه المفاهيم الخاطئة ، اقتباساً من الفهم الأجنبي الخاطيء ، أو المنبعث عن هوى أو عصبية أو غرض .

ومن ألون هذا الانحراف ومن أشد أمراضه الفتاكة : كثير

من المفاهيم التي شاعت في بيئاتنا عن الفن والأدب ، والمبتدئة
عن نظرة الغربي إلى الحياة وفلسفته فيها ، وعقيدته الحقيقية
لا الظاهرة . إن العقيدة الحقيقية للغربي سواء أكان ديمقراطياً
رأسمالياً أم اشتراكياً شيوعياً ، ليست هي المسيحية - بل
هي وثنية جديدة لها معابدها وأصنامها وكهنتها ، كما يقول
الأستاذ محمد أسد في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) .
إن لذة الفرد وشهواته في شق صورها ، وجهه للاستئثار
والمصالح المادية للطبقات والشعوب وما يتبع ذلك من كثرة
الانتاج ووفرة الوسائل المادية ، هي الغايات الحقيقية لهذه
الحضارة والبواعث النفسية لأصحابها ، وليس الخلاف بينهم
إلا في طريق الوصول إليها وطريقة توزيعها ، أو في التنافس
عليها .

إن مبادئ النصرانية الروحية وعقائدها وتعاليمها الخلقية
واتجاهاتها مخالفة لمخالفة أساسية جوهرية للحضارة الغربية . إن
الفن والأدب ليسا في الغرب إلا تعبيراً عن نفسية المنتهين لهذه
الحضارة ، وتصويراً لمشاهدتها ، وعرضاً لها دون فتور على
الاستمرار والدوران إن أكثر ما يكتب من أدبنا ويصاغ من
فنتنا ليس إلا اقتباساً وتقليداً لذلك الأدب ، إنه يخالف من
حيث الأساس والجوهر ، المفاهيم الأصيلة في الأدب العربي
كما تصورها العربي في الجاهلية وبعد الإسلام ، إنه يبتعد
عن حياته ودوافعه المثالية حتى في ألوانها الواقعية .

(٥) إن هذه المرحلة التي وصفنا خصائصها مرحلة طبيعية لم يكن بد - في الظروف التي كنا فيها - من أن نمر بها ، ولكنها استغلت خارجياً من بعض المستشرقين والأجانب عموماً لتوجيهها وجهة تقضي على خصائصنا وتحول دون بعث حضارتنا وظهور ذاتيتنا ، وعودة ديننا إلى صورته النقية الصافية المنتجة وما تضمنه من مثل عليا ، واستغلها كذلك داخلياً أصحاب الأهواء والشهوات والمتاجرون على حساب أوطاننا وراثتنا وديننا .

وإن تأثير هذه المرحلة أعمق من أن يذهب بسرعة ، وقد كان في بعض نواحيه مفيداً ، وفي بعضه الآخر ضاراً ضرراً خبيثاً ، شأنه في ذلك شأن كثير من المصائب والنكبات ، وأن هذا التأثير الذي بيناه أضيفت إليه بعد حقبة من الزمن عوامل جديدة جعلتنا ننتقل في تطورنا إلى مرحلة جديدة :

١ - ذلك أن النضال السيامي للتحرر من الاستعمار قد اشتد ، والثورات في كل بلد قوّلت وانتهت في كثير من البلاد العربية والإسلامية إلى الانفصال عن الأجنبي والاستقلال ، وقد أوحى الظفر في معركة الانفصال المادي فكرة الانفصال المعنوي والاستقلال الروحي .

٢ - وكنا في مرحلة الإقتباس والتقليد نحتذي حذو غيرنا في إحياء التاريخ والتراث ، والإعتراز بالأجاء والمبادئ الصالحة للإنسانية والصفحات الناصعة من حضارتنا . وكان

ذلك ينتشر مع إنتشار حركة العلم والتثقيف ، فكان لما
أحيينا من تراثنا ونشرنا من مطوي صفحات تاريخنا ، ورأينا
من روعة مبادئنا وحضارتنا ، أثر في إشعارنا بكياننا المعنوي
وذايتنا .

٣ - أضف إلى ذلك ، أن استمرارنا في تفهم معارف
الغرب والإطلاع على مكنون تاريخه وأسس حضارته ومختلف
مذاهبه الفلسفية والاجتماعية زادنا تعمقاً في فهم حضارته
ومعرفة مشكلاتها وأزماتها ، فكان ذلك خير طريق للتحرر
من الكثير من آثارها . ولذلك وجدنا في هذه المرحلة الجديدة
من حياتنا وفي هذه السنين الأخيرة أن أكثر الناس تحرراً من
النفوذ الثقافي الغربي من حيث الجوهر - لا الأسلوب - أعرفهم
بها وأشدهم تعمقاً في معرفتها وأكثرهم ملازمة لها ، فالثورة
على الثقافة القديمة كما بدأت من المثقفين بها ، ظهرت الثورة
كذلك على الثقافة الغربية وفلسفتها من المنتمين إليها
والناشئين في أجوائها ^(١) . ولئن كان دور أولئك قد انتهى
فإن دور هؤلاء قد ابتدأ .

لقد تظاهرت هذه العوامل التي ذكرناها على الوصول
بالتطور إلى مرحلة جديدة ، وذلك بما أثمرته من ثمرات : منها

(١) من أمثلة ذلك محمد إقبال الفيلسوف المسلم وكان ذا ثقافة غربية
عميقة درس الفلسفة والحقوق والآداب في أوروبا وأجاد وتعمق في
الانكليزية والألمانية . ومن هذا النوع الأستاذ مالك بن نبي الفكر الإسلام
الجزائري وهو مهندس كهربائي درس في فرنسا وأقام فيها ثلاثين سنة وألف
الكثير من كتبه بلغتها .

فهم الحضارة الغربية فهماً عميقاً، والتمييز بين عناصرها الخاصة بشعوبها والعارضة في حياتهم والظاهرة وعناصرها العامة ذات الصفة الدائمة والإنسانية والجوهرية . ومن هذه الثمرات ما يتراءى للباحث المتأمل من أن الحضارة الغربية بشق صورها قد أخفقت في تحقيق السعادة للإنسان ، وفي تهذيب النفس الإنسانية وفي الإرتقاء بغاياتها ، ولم تنجح إلا في الوسائل دون الغايات ، وفي الصناعة سواء أكانت صناعة عقلية أو يدوية لا في الأخلاق ومن نتائج هذه العوامل أيضاً المسير أشواطاً كبيرة نحو فهم الإسلام فهماً عميقاً صحيحاً وتمييز عناصره الأصلية ومبادئه السامية من العناصر الدخيلة عليه ، والعالقة به خلال العصور المنصرمة والعودة إلى أخذه من ينابيعه الناصية والناهلة العذبة في كتاب الله المعجز ، وسيرة نبيه العظيم - صلوات الله عليه - وأقواله ثم سيرة أصحابه .

إن هذه العوامل كلها وما أدت إليه من نتائج تجعلنا في بدء مرحلة جديدة هي مرحلة الوعي الذاتي التي بدأت تتجلى في الأمة العربية ، وفي سائر الأمم الإسلامية وإن من الواجب أن نضاعف النور في طريقنا ، وأن نقتلع الرواسب الضارة العالقة بنا من مرحلة الخضوع والتبعية ، وأن نعمم هذا الوعي ونشفي معركة التحرر المعنوي والتبعية الحضارية في الداخل لنبدأ بالمعركة الخارجية لصالح الحضارة والإنسانية .

المرحلة الجديدة

إن هذه المرحلة الجديدة يتجلى فيها الوعي الذاتي في أكثر الشعوب الإسلامية ومنها الشعب العربي ، وليكون الوعي كاملاً في الأمم لا بد أن تجتمع فيه ثلاثة عناصر : وعي المبدأ أو العقيدة أو الرسالة التي تدين بها تلك الأمة وتعمل من أجلها وتقيم الحياه على أسسها . ووعي الكيان أو الجماعة البشرية كجماعة متميزة بذاتها سواء أكانت هذه الجماعة مؤلفة من شعب واحد أو من شعوب كثيرة . ووعي الموقف أي إدراك المرحلة التي تمر بها والموقع الزماني والمكاني الذي تكون فيه بظروفه وملابساته . ولو نظرنا بهذا المنظار الى الأمة العربية والى كثير من الشعوب الإسلامية التي بلغت المرحلة نفسها لوجدنا النتائج التالية :

(أ) لقد انهار هكل البناء الذي كنا نعيش به في عصور الانحطاط القريبة وتداعت أكثر أجزائه للهدم ولم يبق منه إلا بعض مواد البناء المتينة في أصلها ولكن دون أن يتكون منها بناء .

(ب) لم نجد في الحضارة الغربية على اختلاف مذاهبها الديمقراطية والاشتراكية مذهباً صالحاً لحياة الانسان ورقبه الحقيقي وسعادته ، وإن وجدنا في نتائجها العقلي في ميدان العلوم المحضة أعني الرياضيات والطبيعات ، وفي صناعاتها ،

وسائل صالحة . بل إن أصحابها أنفسهم اعتقد الكثير منهم
بفساد اتجاهها وسوء غاياتها وإخفاقها .

(ج) وجد العرب والشعوب الإسلامية الأخرى أن قيامهم
أيديهم من تراث النبوات وروحي الديانات ، رصيذاً ثميناً وصعيداً
مشتركاً للإنسانية جميعها وأن ما جاء به الإسلام أخيراً من
إكمال للبناء وشمول للحياة وتحديد لاتجاهات ثابتة ، يقوم عليها
نظام كامل للحياة مستمر التجدد ، مفتوح الآفاق - إن في
ذلك كله مبدأ صالحاً لهم وللإنسانية جميعاً ، يستطيع العرب
والمسلمون أن يقيموا عليه حضارة وأن يدعوا إليها أمم الأرض
وشعوبها .

إن العرب يجدون في العقائد المشتركة التي قامت عليها
الديانات من الإيمان بالله الخالق ، والإيمان بحسابه ، وفي المبادئ
والنظم التي جاء بها الإسلام متمماً لما بين يديه من النبوات
والديانات - إنهم يجدون في ذلك ما يحقق الإنسانية في نفوسهم
وفي نفوس غيرهم أيضاً .

ولا بد لإنضاج هذا الوعي ، وعي الرسالة والمبدأ من
شروط يجب تحقيقها .

١ - تقديم الإسلام في صورته الكاملة كبناء ونظام شامل
لا في جزئيات منشورة وتفصيلات مفرقة .

لقد سادت في العصر الماضي عقلية الجزئيات والتفصيلات
فحجبت عن أذهان الناس الصورة التامة الواضحة

للإسلام ، حتى إن كل واحد يعرف لك الإسلام ويحصره في إحدى جزئياته . وإن دارس الجزئيات وحدها لا يفقه الإسلام مهما يكن فقيهاً في هذه الجزئيات . إن مزية الإسلام أن نظرتة كلية شاملة ، وأنه لم يحزىء الحياة بل نظر إليها نظرة موحدة متصلة ولو أنها كانت هي نفسها أقساماً . ولو استعرضت كتاب الله لخرجت منه بفكرة محيطية شاملة تحيط بالكون والإنسان ونواحي حياته ونشاطه ، وتربطها جميعاً بخالقها ونهايتها ^(١) وإنك لتلمح من خلال سيرة الصحابة فهمهم لكليات الإسلام الكبرى وغاياته ^(٢) .

إن الأساس في رسالة الاسلام إنما هو الأساس الإيماني ، الذي يتضمن نظرتة إلى الوجود وعقيدته والتي تتلخص بارتباط الكون - والإنسان في جملته - بخالق فاطر منه البداية

(١) كما ترى ذلك واضحاً في كثير من الآيات الجامعة كقوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط : وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ... » (الحديد) وقوله تعالى : « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ، فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله . . . إلى قوله تعالى : لقوم يعلمون » . (الأعراف)

(٢) من أحسن الأمثلة على ذلك ما قاله رباعي بن عامر حين دخل على قائد الفرس يوم التقى الجيشان في عهد عمر إذ قال : (إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها) وفي هذه الكلمة أروع تلخيص لرسالة الإسلام .

وإليه النهاية ومن خلال الكون وحادثه وسننه وآياته وقوانينه وحركاته ، ومن خلال نفسه أيضاً - يصل الإنسان إلى الله وهو مسؤول أمامه في حياة أخرى . وليست النبوات إلا طريقاً أراد الله لتبليغ الأمانة وهداية البشر إليه . ذلك هو العنصر الاعتقادي في هذا الأساس . ولكن هذا الأساس الإيماني يتوجه إلى القلب والعاطفة ، كما يتوجه إلى العقل فيبعث فيه عواطف الخوف والرجاء والخشية والأمل والإعجاب والإكبار ، وعواطف الشعور بالمسؤولية أمام الله ، ويقظة الضمير ومحاسبة النفس ومراقبتها .

ويرتبط بهذا الأساس الإيماني رياضة روحية تتناسب مع مبادئ الإسلام وأنظمتها الأخرى لتبقى النفس متيقظة ، والعواطف المتسامية نحو الله حية فعالة ، وهذه الرياضة هي نظام العبادات بأنواعها المختلفة المحيطة بالإنسان في سائر نواحي وجوده ونشاطه وميوله وغرائزه . وهذه الرياضة الروحية أو نظام العبادات حلقة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً لأنها هي التي تضع الأساس النفسي بعد الإيمان الصالح لدخول معترك الحياة ، وتعدّها لتقبل نظام الأخلاق في الإسلام ، وهو الحلقة الثالثة من نظامه يرتبط بما قبله من الإيمان والعبادة وبما بعده من نظم للحياة الفردية والاجتماعية والفعالية الانسانية ، ويجعل النفس مرتبطة بالله من جانب بغاياتها وبواعثها وتحركاتها ، وينضال الحياة

الانسانية في سبيل العمل ومناصرة الحق والعدل والخير في
النفس والمجتمع لتحريرهما من الباطل والظلم والشر ، وبما
يختلف هذا النظام عن المذاهب الروحية السلبية وعن المذهب
المادية النفعية في آن واحد .

ويرسم الإسلام بعد ذلك حياة الإنسان خطوطها الكبرى
ومعالمها الواضحة في الأسرة ، فيحكم بنائها ويحدد وظيفتها
وواجباتها . وفي العمل المادي والكسب والاقتصاد على أسس
جامعة متوازنة عادلة . ويقم بعد ذلك دولة ليست هي الدولة
الدينية التي عرفت في أوربا في القرون الوسطى ولا الدولة العثمانية
أو (اللادينية) التي عرفت في عصورها الحديثة . وإنما هي دولة
وظيفتها رعاية هذا النظام الكامل وحماية هذا الجهاز الإنساني
الضخم ليسير سيره الطبيعي ويرتقي ويسمو في جميع الآفاق ولا
تخرج عن إشرافها أي فعالية من فعاليات الإنسان المادية
والروحية . فكما تدخل الناحية الاقتصادية تدخل الناحية
الخلقية والروحية . لا تُكره ولكن تحمي وتصور ، ونهي
الجو الذي ينطلق فيه الإنسان نحو الله ، لا يستعبده مال ولا
إنسان ولا طبقة ولا شهوة ، يتساوى في هذه الدولة الراعي
والرعية على أنهم عباد الله ، ولكل عمله ووظيفته . وليس
الحاكم جباراً ولا مستعبداً وإنما هو وكيل عن الشعب ونائب عن
الناس وأجير لهم ، وليس كما كان عند الأوربيين وكلاء عن الله
أو نائبا عنه .

والحكم مبني على الشورى بين الراعي والرعية وعلى العدالة بين الناس على اختلاف عقائدهم وأديانهم وأجناسهم وعلى مسؤولية الحاكم في الدنيا أمام الناس وله أمام الله حساب آخر في حياة أخرى .

وينشأ عن هذه الأنظمة بمجموعها حضارة كاملة ينطلق فيها الإنسان بعقله وقلبه ويده ، يفكر ويشعر ويعمل منتجاً نحو الله مبتغياً رضاه ، منتظراً حسابه . وينبثق عن هذه الحضارة علم وعمل وفن تتناسب مع أهدافها التي هي مسير الانسانية متأخية نحو الله .

ذلك هو بناء الإسلام في أقسامه الواضحة المتناسكة في صورة موجزة . إن تفكيك أي جزء من أجزاء هذا البناء وفصله عنه ، مؤد إلى إفساد الغاية التي اقتضتها حكمة الله فيه وتشويه لجماله وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة « (١) » .

لقد كان من أسباب تعطيل فعالية الإسلام الكبرى تشعب

(١) إن هذه النظرة الشاملة الجامعة لجميع جوانب الإسلام ونواحي الحياة هي التي اقترحنا تسميتها (نظام الإسلام) وقد جعلت مادة للدراسة في كليات الأزهر وجامعة دمشق والجامعة الإسلامية بالمدينة وكلية الشريعة بمكة وجامعة أم درمان الإسلامية بناء على اقتراحي حينما اشتركت في لجان التخطيط في هذه الجامعات وأدخلت في جامعة الرياض باسم الثقافة الإسلامية وقد شرعت منذ سنين طويلة في إعداد مؤلف يعرض هذه الفكرة الشاملة عرضاً جامعاً للأجزاء رابطاً بينها موضعاً جوهرها وقد أخرجت جزءاً من هذا المشروع بعنوان: نظام الإسلام - العقيدة والعبادة (طبع دار الفكر في بيروت ١٩٦٨) .

الإسلام في القرون التي أعقبت الصدر الأول إلى عقيدة تخاطب العقل عند علماء الكلام ، وعاطفة تخاطب القلب وتصلح النفس عند الأخلاقيين والمتصوفة ، وأعني الذين كانوا على النهج الإسلامي ، وأحكام ظاهرة يدرسها الفقهاء .

لقد كان الإسلام وحدة لا تتجزأ فكانت صلاة المسلمين الأولين عملاً ظاهراً يتعلمون حكمه ، ومظهراً لصلة القلب بالله وإيمان العقل به . وكانت كل ذلك يعمل معاً دون انفصال وتجزئة .

٢- ومن الشروط التي يجب تحقيقها لإنضاج الوعي الإسلامي : وضع الأمور في نصابها وإعادة النسب إلى أصلها في ترتيب أجزاء هذا البناء الذي بناه الإسلام وقد أشرنا إلى هذه الفكرة في الفصل السابق .

إن الإسلام جعل لكل ناحية من نواحي الحياة ومطلب من مطالبها نسبة محدودة لا يتعداها ، وقرر ترتيبها بحسب أهميتها فجعل لكل من العبادة والجهاد والزكاة والكسب حصة ونسبة . وجعل للجسم والعقل والمال واللذة واللهم والعمل . وضعاً ومقداراً . فإذ بنا نرى أن العصور المنصرمة غيرت هذه النسب ، وإذا بالجهاد مثلاً يحذف من كثير من كتب الفقه المختصرة أو تخصص له صفحات قليلة ، أو لا يخص في المواعظ بحصة كبيرة وهو من أركان الإسلام الكبرى . وكذلك لا ينبه إلى أهمية الزكاة بمقدار ما ينبه إلى بعض

السنن والنوافل ، مع أن مانعي الزكاة حاربوا محاربة المرتدين .
 كثيراً ما يقرن القرآن أموراً بأمور وينبه إلى أهميتها ،
 كقوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على
 طعام المسكين » أو قوله في باب المفاضلة بين قِيم الحياة
 وترتيبها : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ، وأزواجكم
 وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ،
 ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ،
 فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

وتشير كثير من الأحاديث إلى أهمية الأعمال بعضها بالنسبة
 إلى بعض وتقويم بعضها ببعض ، كالحديث المفاضل بين الجهاد
 والعبادة ^(١) والفقه والعبادة ^(٢) ، وكذلك الأعمال بالنسبة إلى
 قبورها إذا كانت محظورة كالربا والزنى ^(٣) .

ومن هنا نعرف خطأ الذين يجعلون مهمهم ودأبهم تصحيح
 بعض الأمور التي لا تعد شيئاً في جانب فساد العقيدة ،
 ويتعصبون لرأيهم فيها ويتشددون في أمرها تشدداً يشغل أذهان
 الناس بها ويصرفهم عن أسس العقيدة المهددة .

(١) كالحديث الصحيح الناص على أن أجر المجاهد - حين سألوا عنه
 رسول الله صلى الله عليه وسلم - كأجر المصلي الصائم القائم من ساعة خروج
 المجاهد من بيته إلى ساعة رجوعه .

(٢) كقوله عليه الصلاة والسلام : (فقه ساعة خير من عبادة ستين سنة) .

(٣) كقوله عن الربا ، (إنه يعدل ستاً وثلاثين زنية أدناها كالذي يزني
 بأمه) لبيان عظم جرم الظلم المالي المتجلي في الربا بالنسبة إلى الزنى .

٣ - ومن شرائط الوعي الإسلامي :

العودة في فهم الإسلام الى ينابيعه الأصلية من الكتاب والسنة وفهم الصحابة ، وإزالة الحجب التي فصلتنا عنها ، واعتبار الآراء المستنبطة خلال العصور فهوماً لعلماء المسلمين يُستفاد منها .

وعي المرحلة أو الموقف :

يتطلب هذا الوعي منا ان ندرك الموقع الذي نحن فيه والظروف التي تلابسنا والزمن الذي نعيش فيه . فنحكم الخطوة ونحكم الفهم على هذا الأساس :

(١) يتطلب هذا الوعي منا أن ندرك الجو الفكري الذي نعيش فيه حين نعرض العقيدة الاسلامية : انها ثابتة لا تتغير ولكن طريقة الخطاب وطريقة العرض تتغير . ولو أننا عدنا الى القرآن نفسه ، لوجدنا عناصر هذه الطريقة جلية واضحة . لم يعد من الجائز ان نعرض العقيدة وندرسها كما يعرضها التفتنازي في مقاصده ، أو النسفي في عقائده . فنبحث مشكلات تاريخية لا وجود لها اليوم ونناقش فرقاً انقرضت ، ثم نهمل مشكلات قائمة وفرقاً ومذاهب موجودة . إن مسائل الذات والصفات والجوهر والعرض والزمان والمكان مسائل تاريخية أو فلسفية على الأقل . ولم نعد نسمع بين الناس بالمعطلة والمرجئة ، ولكننا اليوم أمام مشكلات جديدة ومذاهب فكرية وفلسفية

جديدة^(١) . والمهم ان نبعث الإيمان كما جاء به الإسلام في
الغفول والقلوب بحسب مستواها وفي الجو الذي تعيش فيه .
والقرآن خير مصدر يمدنا في هذا الميدان .

٢ - يجب ان نعلم أننا نعلم الإسلام في جو ملوث موبوء .
فلنحاول شعباً وحكومة ، تطهير هذا الجو حتى يجد الإيمان
الإسلامي والعواطف المنبعثة عن الإيمان بالله والشعور بالصلة به
وبالمسؤولية أمامه طريقاً إلى القلوب والنفوس . فإن العوامل
الهدامة والعوامل التي تحجب عنا القيم الروحية والمثل السامية
والعواطف الصالحة التي جاء بها الإسلام للرفق بالإنسان ، منها ما
هو عقلي وفكري ، ومنها ما هو نفسي عاطفي .

٣ - يجب ان ندرك الظروف التي نبعث فيها الحكم الفقهي
في التشريع . وكثيراً ما زلت في هذا الوطن أقدم الى جانب
اليمين أو اليسار إفراطاً وتفریطاً . فنحن بين اتجاهين منحرفين
يجب تجنبهما لنكون على الجادة المستقيمة . أحدهما : المذهبية
الضيقة والجمود المنافي لفهم روح الشريعة ومبادئها العامة :
وثانيهما : الوقوع تحت تأثير المفاهيم الأجنبية ، ولأضرب على
ذلك بعض الأمثلة :

تواجهنا وقد دخل حياتنا الاجتماعية طرائق وتنظيمات وعادات

(١) إن أمثال هذه الكتب والمسائل يمكن أن تدرس على أنها قضايا
تاريخية في بعض أقسام التخصص . وللتدرب على فهم أمثال هذه الكتب
للرجوع إليها ، وكسب الملكة التي تعين على فهمها .

اجتماعية جديدة كثيرة، منها لا يتفق مع معتقداتنا الصحيحة، ومبادئنا الخلقية القوية، فمن ذلك الطريقة التي سلكها أهل أوروبا وأمريكا في تخليد أبطالهم في تماثيل تنصب لهم^(١)، ولو نظرنا في هذا الأمر نظرة المتحرر من ذلة الخضوع لكل ما تمليه حضارة الغرب، وتأملنا في فلسفة هذه الطريقة في التعبير عن تخليد المآثر والمكارم، لوجدنا أن العرب بوجه خاص لم يخلدوا من عظماء رجالهم إلا مكارمهم وأعمالهم المجيدة الطيبة كالوفاء والكرم والشجاعة، وإن طريقتهم في تخليدهم كانت في ذكر قصص بطولتهم، وقد تناقلها الناس جيلاً بعد جيل، أو في نظم الشعر في مدحهم والاشادة بهم. وبهذه الطريقة خلد حاتم بكرمه، وعنترة بشجاعته قبل الإسلام. ولما جاء الإسلام أكد هذا المعنى، فجعل أشرف خلق الله وخاتم رسله بشراً من الناس: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي»، وجعل قيمة الناس بأعمالهم لا بأجسامهم، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة يقتدي به البشر، ونهى عن تقديس البشر، وتعظيمهم تعظيماً يشبه العبادة، ويتضمن احتقار النفوس البشرية الأخرى.

ولذلك نادى الخليفة الأول حين انتقل رسول الله إلى جوار ربه: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) ثم تلا قوله تعالى: «وما محمد إلا

(١) أضف ما ذكرناه هنا في موضوع التماثيل إلى ما كتبناه في الفصل السابق في الموضوع نفسه.

رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على
أعقابكم ، ، لقد خلد الإسلام الناس بأعمالهم الصالحة النافعة
وخلد في قلوب المسلمين ، خواصهم وعوامهم ، رجالا الإسلام
فعرف صغيرهم وكبيرهم ، عمر بالعدل ، وأبا بكر بالحزم
والحكمة ، وعلياً بالزهد والشجاعة ، ولم يحتاج أحد منهم إلى
تمثال مادي من الحجر ينصب ليتذكره الناس ، فقد خلدته
أعماله وأخلاقه في قلوبهم . إن في طريقة التخليد باقاة التماثيل
المادية رجوعاً إلى الوراثة وانحطاطاً عن المرتبة السامية . سلكها
الرومان واليونان والأوروبيون من بعدهم لأنهم جميعاً وثنيون
في طباعهم منحطون عن العرب والمسلمين في مستوى خلقهم
وتقديرهم للقيم الخلقية . بل إنهم لعجزهم عن تصور تحقيق البشر
للمثل الأعلى والبطولة الحقوا بأبطالهم بالآلهة وجعلوا الآلهة
أبطالاً . والنتيجة التي تخرج إليها أننا لا ينبغي لنا أن نخضع
للمفهوم الأجنبي في هذا الموضوع وهو أدنى من مفهومنا ، وألا
نغير الحكم الإسلامي في حرمة إقامة التماثيل لضررها النفسي
والخلقي .

ومن أمثلة الخضوع للمفاهيم الأجنبية ما ذكرناه سابقاً في
موضوع « اليانصيب » فإن المجتمع الأوربي كما قلنا حين نصب
معين الخير في نفوس أفرادهم وفترت البواعث النفسية إلى فعل
الخير لذاته أو مانت ، لم يبق إلا دوافع الاغراء بالربح المادي
طريقاً لأخذ المال في سبيل مصلحة عامة أو في سبيل الخير فإذا
أقررنا اليانصيب وحللناه فمعنى ذلك : أننا أقررنا بأن قلوبنا

أقفرت من الخير ولم يعد بينها وبين الله صلة تدفعها إلى فعل
الخير إرضاء لله ، وهي طريقة تتناسب مع مذهب المادية
والجحود ، لا مع مذهب الإيمان بالله .

وقد أتينا في الفصل السابق على أمثلة للجحود والتضييق
المذهبي منها مسألة الضرائب ومسألة تشريع العمل .

إننا في حاجة إلى وعي فقهي إسلامي نفهم فيه فقه الإسلام
وحكمه ونعود إلى مبادئه وقواعده في الكتاب والسنة ،
ونسترشد بفهم فقهاء الصحابة ، وندرك مواطن الأمور ومجاها
وظروف تطبيق كل حكم من الأحكام بحسب غاية الشارع منه ،
ونفرك بين مبادئ الإسلام وأحكامه وإتجاهاته التشريعية
الثابتة ، وتطبيقاته الزمنية في عصور الفقهاء وفهمهم ، لنبعث
الإسلام وفقهه في الحياة من جديد .

يجب أن ندرك تمام الإدراك أن المرحلة التي تمر بها
البشرية في العصر الحاضر - ولا سيما في أوربا وأمريكا - هي
مرحلة وثنية جديدة وإن المذاهب والفلسفات والنظم التي
تغزونا وتغزو العالم أجمع عن طريق الفكر والعلم أو عن طريق
السياسة أو الإقتصاد هي مذاهب تنهل من هذه الوثنية ،
وتستمد من المادية ، وأنها قد قطعت صلتها أو كادت من الأديان
وتراث النبوات ، وليست الصهيونية والاستعمار إلا مظهرين
من مظاهر هذه الحضارة الوثنية الجديدة . وما دامت الحال
كذلك يجب أن توجه الجهود لمحاربة هذا الخطر الأكبر الذي

تهدد البشرية جميعاً ، وتقوية جبهة المبادئ الروحية والقيم
الخلقية والإيمان بالله ، وعدم الالتفات الكبير إلى المسائل التي
ليست في مرتبة هذه الأسس الاعتقادية الكبرى .

وعني الذات أو الجماعة البشرية التي نفتمي إليها :

إن الرسالة والعقيدة لا تعيش بنفسها مستقلة عن يحملونها ،
بل لا بد لها من شعب أو هدد من الشعوب يضطلعون بحملها ،
ولذلك كان الشرط الذي لا بد منه لنشر رسالة من الرسائل ،
أن يشعر شعب من الشعوب بكيانه وذاته مرتبطاً بتلك
الرسالة .

إن في العالم اليوم عدداً من الشعوب الإسلامية ، أي التي
يدين جمهورها كله أو أكثره بالإسلام ، وبعض الأقليات المتفرقة
في بعض الشعوب الأخرى ، إن من جملة مظاهر الانحطاط
الذي آلت إليه حالة المسلمين في العالم فقدان الشعوب الإسلامية
لوعيتها الذاتية ، أو ضعفه على الأقل ، وقد بدأت هذه الشعوب
اليوم تشعر بوجودها وكيانها وموقعها في العالم وبين شعوبه .

الإسلام والقوميات

وليس ثمة من تناقض ولا تعارض بين شعور هذه الشعوب
بقومياتها على أنها كيان موجود وحقيقة قائمة وشعورها
بانتانها إلى الإسلام ورعيتها الإسلامي . فالإسلام لم يعمد في

الأصل إلى نحو القوميات من الوجود ، وقد قال الله تعالى :
« وجعلناكم شعوباً وقبائل » .

ولكن الذي دعا إلى محوه وحاربه هو العصبية القومية
ومزية الإسلام وقيمته العظيمة التي لا تبارى هي في أنه جعل
للسعوب البشرية هدفاً مشتركاً تسير نحوه وصعيداً تلتقي عليه
فتشارك في مفاهيمها وعقائدها وفي مشاعرهما وآمالها ، وفي
الكثير من عاداتها ، وبذلك تكونت حضارة إسلامية تتصف
بالإنسانية ، وثقافة إسلامية تتجذّر نحو الإنسانية وتتعاقل
جميع الشعوب في شركة مفتوحة الأبواب لكل من يريد الدخول
فيها والمساهمة فيها ، وبذلك لم يجعل القومية غاية في ذاتها
يوقف عندها ، بل جعل القومية ، أي انتماء الناس إلى أجناس
وبلدان ، أداة لخدمة الإنسانية التي رسم مثلها وأهدافها
واتجاهاتها في رسالته السماوية في مصدرها ، الإلهية في منبعها
وأصلها .

إن في العالم الإسلامي عرباً وهنوداً واندونيسيين وفرنساً
وافغانين وأتراكاً وأحباشاً وإفريقيين وشعوباً إفريقية أخرى ،
وغيرهم ممن تتألف منهم الشعوب الإسلامية ، ومنهم اليوم دول
مستقلة كبيرة كالدول العربية وباكستان واندونيسيا وإيران
وتركيا والملايو والأفغان وغيرها . وقد ترك الإسلام منذ القديم
لكل شعب لغته والكثير من عاداته الخاصة وفنونه . ولكنه
وحد العقيدة ، أي نظرتهم إلى الله والوجود والحياة ، ووجه

طريقة عبادة الله ، والتشريع ، أي : تنظيم العلاقات بين
الناس في تعاملهم ، وطريقة السلوك أو المفاهيم الخلقية ، وبعض
العادات المتعلقة بتحريم بعض المآكل والمشرب وغيرها .

إن شعور هذه الشعوب الإسلامية اليوم بالانتماء إلى أسس
واحدة للحضارة والثقافة واهداف وغايات مشتركة في الحياة ،
وشعورها أنها تكون في العالم كياناً بشرياً ، يتميز بمثله وقيمه
وحضارته ، ومنطقة ثقافية ، وحضارة واحدة أمام عوالم
أخرى هي العالم الديمقراطي الغربي والعالم الشيوعي والعالم
الوثنى الآسيوي الأفريقي . إن هذا الشعور ضروري جداً ،
بل عنصر أساسي في تقدم الإنسانية كلها ، إن وجود هذه
الكتلة البشرية المؤلفة من شعوب كثيرة المتميزة بنوع من الثقافة
أو العقائد والمفاهيم والعادات والعواطف المشتركة أمر واقع
لا يمكن دفعه ولا إنكاره ، ولكن المهم هو قوة شعور المسلمين
به والارتقاء بهذا الشعور العفوي الموروث إلى شعور واع تغذيه
معرفة واسعة منتشرة بين الجماهير لمشكلات العالم الإسلامي في
ميادين الفكر والخلق والاقتصاد والسياسة ، فلم يعد من المستساغ
ولا من المقبول أن لا يعرف المسلم العادي فضلاً عن الداعية المسلم
شيئاً عن البلاد الإسلامية وعواصمها وجملة أحوالها ، وأهم
مشكلاتها ، ولذلك كان من الواجب أن يدرس العالم الإسلامي
في جميع مراحل التعليم .

إن ثمة فرقاً كبيراً جداً وبوناً شاسعاً بين إحداث وعي

شعبي في العالم الإسلامي ، يقوم على شعوره بذاته وكيانه المتميز بثقافته وحضارته السامية الأهداف عن الحضارات والعوامل الأخرى ، وشكل آخر من الارتباط السياسي بين حكومات تحكم في البلاد الإسلامية وتتسم بسمة التحالف والتقارب والتواد مع بعض الدول والكتل الأجنبية شرقية كانت أم غربية ، ليكون من وراء هذا الارتباط تكتل مصطنع لا جذوره يربط دول العالم الإسلامي بإحدى الكتل العالمية فيفقد بذلك أهم خصائصه وميزاته ، ويفقده الأمل في أن يكون معقد الرجاء ومطمح الأنظار لحل أزمة الحضارة التي فقدت الروح والقيم الخلقية .

هذا ، وإن شعور كل شعب من الشعوب الإسلامية بكيانه القومي وتحفزه لوحده إذا كان مجزأ ، وتحرره إذا كان مستعمرًا ، لا ينافي الوعي الإسلامي العام ، إذا لم يبلغ هذا الشعور القومي حد العصبية ولم يطغ على العقيدة الإسلامية وعلى الشعور الأبد والأسمى للغايات الانسانية التي رسمها الإسلام .

العرب ورسالة الإسلام العامة

إن شعورنا نحن العرب بكوننا عرباً وسعينا إلى توحيد البلاد العربية وتحريرها جميعاً من الاستعمار ، لا أقول : أنه لا ينافي الإسلام وحسب ، بل إن هذا الشعور بعروبتنا ضروري بوجه خاص لحسن قيامنا بأداء رسالة الإسلام ، ذلك أن العرب

مكلفون قبل غيرهم بتبليغ رسالة الاسلام ، فقد نزل القرآن
بلفتهم ، وبعث رسول الانسانية جميعاً من بينهم ، وهم الذين
فهموا الإسلام حق الفهم إذ تلقوه عن النبي الكريم صلوات الله
عليه ، وتنزلت فيهم آيات الكتاب المجيد ، ولذلك كان العرب
أعلم بمقاصد الرسالة وأفقه لنظام الإسلام وأعرف بأساليب
القرآن .

ولهذا كان للعرب في رسالة الإسلام ودعوته وظيفة هامة
دائمة ، وهي حمل رسالته وتبليغ أمانته ونشر دعوته ، وقد
حملهم الله المسؤولية كما ينص على ذلك كتابه الكريم ، وتسدل
عليه آيتان في سورة الزخرف في قوله تعالى : « إنا جعلناه
قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وقوله : « وإنه لذكر لك
ولقومك وسوف تسألون » .

ومعنى الآية الأولى : أن الله جعله عربي اللغة ليستطيعوا
أن يعقلوه ويفهموه ، وما ذلك إلا ليبلغوه إلى الناس كافة وجاءت
الآية التالية تنص على أنهم سوف يسألون بعد أن بينت أن في
هذا القرآن ذكراً ورفعة للرسول صلوات الله عليه ولقومه ،
وقوم الرسول هنا هم العرب كما فسر ابن كثير . فهذه
المسؤولية التي حملها الله العرب في تبليغ الرسالة وأداء
الأمانة مستمرة باقية إلى يوم الدين ، ولذلك كانت وعيهم
لمروبتهم مؤذناً لهم بواجبهم نحو العالم جميعاً ومشعراً
لهم بموقعهم بين الشعوب الإسلامية وبتبعيتهم نحوهم ونحو

الانسانية جميعاً . وأما عصبية الجنس والشعور بالاستعلاء
فيفقدون قيمتهم العالمية ، وتسقط عنهم صفة الهداية
والقيادة وتعيدهم إلى مستوى تلك الأمم التي تتنافس على المال
والنفوذ والسلطان تدفعها لأثرة والغرور وحب الذات .

لقد انتهى العرب في بعض أقطارهم من معركة التحرر من
الاستعمار والتبعية السياسية ، ونجحوا في معارك التحرر
السياسي وتحطيم الأصنام التي كان يخضع لها القادة والساسة من
هذه الدول الكبيرة العاقبة التي تسيطر على أكثر بقاع الأرض ،
فتيحاً لنا بنا بذلك الاطار السياسي الصالح للبناء ، فيجب أن
نتمم معركة التحرر من رواسب عصور الانحطاط ، ومن بقايا
الآثار الكثيرة العميقة التي خلفتها مرحلة التقليد والتبعية
للغرب في تفكيرنا ومفاهيمنا ومقاييسنا وعاداتنا ، لنشرع في
البناء على أسس سليمة صحيحة . إن التحرر ينبغي أن يكون
مزدوجاً كما كان الاستعمار مزدوجاً يتناول الأرض كما تناول
النفوس والعقول ، فإنه لا يزال فينا متخلفون يعيشون في جو
تقديس الأجنبي وحضارته والخضوع لاتجاهاته ومقاييسه
وأحكامه ولا سيما من الطبقة المثقفة .

إن الأمة جميعاً يجب أن تساهم في مرحلة البناء الجديدة
بوعي ذاتي يزداد قوة وعمقاً للمبدأ والرسالة والكيان والمجاعة
وللزمن والمرحلة لإحياء الإنسانية والإرتقاء بالإنسان نحو الله ،
وربط عقله وقلبه وعمله به ، وليس كياننا الفردي والقومي

ولا جهادنا السياسي والعلم ، ولا رجال العلم وقادة السياسة إلا وسائل لتحقيق هذه الغاية ، وهم على خير ما داموا سائرين نحو هذه الغاية النبيلة التي تكفل لهم الخلود ورضاء الله .

في ضوء هذا التحرر من التبعية الفكرية للغرب أي في ضوء أوضاعنا وظروف حياتنا وفي ضوء مفاهيم الإسلام الذاتية سنعالج بعض القضايا والمشكلات الكبرى كمشكلة الثقافة في البلاد الإسلامية ومشكلة وقضية تاريخنا كيف نكتبه ومشكلة المرأة وغيرها من المشكلات والقضايا .



المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي^(١) واقعها وعلاجها

النظام الثقافي الحالي في البلاد الإسلامية :

أ - يسيطر على النظام الثقافي في البلاد الإسلامية بوجه عام تفكير غير إسلامي في أسسه ومفاهيمه سواء كان ذلك عن طريق التعليم في المدارس أم عن طريق وسائل النشر الأخرى كالصحف والمجلات والإذاعات والكتب المترجمة والمؤلفة ففي المواد الدراسية ولا سيما التاريخ والاجتماع والتربية الوطنية والمعلومات المدنية ، وفي المواد الفلسفية تتجلى اتجاهات فكرية ومفاهيم مستقاة من عقائد ومذاهب فكرية مخالفة للإسلام ، ولو أن المؤلفين في هذه المواد يحاولون تجنب التعارض الظاهر للأفكار الإسلامية ، وكذلك العلوم الطبيعية فانها تمزج بنظرات عقائدية خارجة في الأصل عن نطاق العلم المحض .

(١) القى هذا البحث في المؤتمر الإسلامي العام المنعقد في مكة المكرمة بعد موسم الحج في عام ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م .

إن هذه المواد الدراسية أخذت واستقيمت من مصادر أجنبية عن طريق النقل والترجمة والاقتباس وهي لدى أصحابها وفي حضارتهم قد أسست على مفاهيم فلسفية وأسس فكرية معينة هي نتيجة تطورهم الفكري وظروفهم الخاصة منها الصراع بين الدين والعلم أو بين الدين والعقل ذلك الصراع الذي كان نتيجة لتشوه الدين وانحرافه إلى وثنية جامدة وتقاليد عجيبة ومناصرة رجاله لأهل الظلم والاستبداد قبل النهضة وفي بدايتها ومعاكسته للفطرة التي فطر الله الناس عليها. لقد تجلت في هذا التفكير العام المسيطر على الثقافة نزعات فكرية تخالف التفكير الإسلامي والعقيدة الإسلامية وأهمها :

(١) النزعة الاحادية بشق صورها ومذاهبها سواء أكانت الطبيعية فيها هي التي تحتل المكان الأول (المذهب الطبيعي منذ القرن الثامن عشر) أم المادة (المادية الجدلية أو الماركسية) أم العقل (المذاهب العقلية) أم الفرائز (الوجودية) وغير ذلك .

(٢) النزعة القومية المغالية التي تتخذ من القومية عقيدة وقيمة عليا وهدفاً أعلى للحياة وتحصر التفكير والنشاط في الإطار القومي وتتجلى هذه النزعة واضحة في تدريس المجتمع العربي في كثير من البلاد العربية وفي مادة التربية الوطنية وفي الجو المدرسي العام .

إن الدفاع عن الأرض والوطن وعن الأهل والعشيرة وعن

الشعب والأمة التي ينتسب اليها المسلم ضد أعداء الإسلام من المستعمرين وأصحاب المطامع في بلاد الإسلام وشعوبه دفاع مشروع بل واجب وأن تقوية هذا الشعور ضد الاستعمار دفاعاً عن الحوزة وحفظاً لسلامة الأوطان هو جزء من التربية الإسلامية . ولكن الموضوع هنا موضوع آخر فقد أخذت النزعة القومية في الشعوب الإسلامية محل الدين تزامناً وتدافعه ويحاول أصحابها أن يجعلوا منها الرابطة الأساسية ومن رابطة الدين وأخوته رابطة ثانوية بل أمراً شخصياً لا يصلح أن يكون أساساً لبناء المجتمع وفي هذه الحال تكون النزعة القومية نزعة وثنية جاهلية تفكك عرى الرابطة الإسلامية وتضعفها وتحل عقيدتها محل العقيدة الإسلامية . على أن هذه النزعة أصبحت من مخلفات القرن الثامن عشر غير صالحة للحياة وقد حلت رابطة وحدة الفكر والعقيدة في العصر الحاضر محل المكان الأول كالماركسية والديمقراطية ولم تعد الرابطة القومية هي العليا والأساسية بل إن الرابطة القومية نفسها أصبحت قائمة على أساس الاشتراك في الفكرة والعقيدة .

إن صياغة العلوم المتعلقة بالطبيعة ومفاهيم التاريخ والمجتمع ومقاييس الأخلاق قد استمدت كلها من هذه الفلسفات المادية أو المثالية المختلفة المعارضة لأسس الإسلام ومفاهيمه وعقائده . وعلى هذا الأساس وضعت مناهج التدريس وألفت الكتب في البلاد الإسلامية على اختلاف درجات التعليم .

(ب) أما تعليم الدين في المدارس العامة الرسمية أو الخاصة التي تحتذيها في البلاد الإسلامية فيؤلف رقعة صغيرة غير منسجمة في مجموع النظام التعليمي الذي وصفناه .

١ - فهو يؤلف من الوجهة الكمية أولاً نصيباً ضئيلاً بالنسبة إلى مواد الدراسة يتراوح في المدارس الابتدائية ما

$$\text{بين } \frac{1}{30} \text{ و } \frac{4}{30}$$

وفي المدارس الاعدادية والثانوية $\frac{4-1}{34}$

وفي دور المعلمين في البلاد التي يدرس فيها الدين بهذه النسبة أو أقل .

أما في الكليات الجامعية فلا تدرس الثقافة الإسلامية مطلقاً إلا في قسم اللغة العربية في كليات الآداب في بعض الجامعات حيث يدرس القرآن والحديث من الوجهة الأدبية فحسب .

٢ - أما من الوجهة الكيفية فالنقص أشد والخطر أقوى وذلك أن طريقة تدريس الدين ومناهجه وكتبه وأساليبه كتابته وتعليمه كانت متأخرة جداً ولا تزال في كثير من البلدان الإسلامية بالنسبة إلى مواد الثقافة الأخرى ففي حين أن تعليم سائر المواد يسلك فيه أساليب حديثة مرغوبة من حيث مراعاة مستوى الطلاب العقلي ومن ناحية حسن التعبير وجمال التأليف

وغير ذلك مما تراعى فيه أحدث الطرق والأساليب نجد أن
التعليم الديني لا يراعى فيه - في كثير من البلاد الإسلامية -
سن الطالب من حيث استساغته للموضوع ولا تراعى فيه
عقلية وأساليب التفكير التي اعتادها في ثقافته ولا ينظر إلى
المشكلات القائمة في نفسه وفي المجتمع الذي يعيش فيه لمحاولة
حلها عن طريق الثقافة الإسلامية . فلا تزال تدرس في بعض
البلاد الإسلامية المتون القديمة ، التي لم توضع للصغار ولا
للأحداث ، والتي كتبت بأسلوب موجز معقد أشد التقيد ،
وأصبحت بعيدة في طريقتها عن الحياة ، بعيدة عن أن تحل
المشكلات التي حدثت في عصرنا هذا ، سواء أكانت مشكلات
فكرية أم اجتماعية . وقد يضاف إلى هذا النقص أن يكون
المدرس كذلك بعيداً عن روح العصر ، خالي الذهن من
مشكلاته ، غير مطلع على جوانب الثقافة العامة المعاصرة التي
يطلع عليها الطلاب في دراستهم . إن هذا التقابل بين هذين
النوعين من المواد الدراسية مادة الدين والمواد الأخرى ،
وهذه الحال التي وصفناها تسبب نفور الطلاب من الدين
وتكون في نفوسهم نظرة استخفاف وازدراء لهذه المادة
ولمدرسيها ، يقابلها نظرة قبول واحترام للمواد الأخرى . إن
مثل هذه العقدة النفسية قد حصلت فعلاً لدى كثير من
الطلاب في بعض البلاد الإسلامية التي بقيت الحال فيها على ما
وصفناه من التباين والتضاد بين مادة الدين والمواد الثقافية
الأخرى . وقد ولدت هذه الحال أزمة في نفوس الجيل

وصراعاً بين الدين من جهة والعلم والحياة من جهة أخرى وكان لذلك ردود فعل شديدة ونتائج سيئة في إضعاف روح الدين وفسح المجال للعقائد والأفكار المعارضة للإسلام لتكسب إلى عقول الناشئة التي تكون الطبقة المثقفة ثم الطبقة الموجهة والحاكمة .

ج - الازدواج في التعليم :

حدث في العالم الإسلامي في هذا العصر ظاهرة جديدة لا عهد له بها في الماضي وهو ازدواج التعليم وانقسامه إلى قسمين مختلفين اختلافاً كبيراً : التعليم المدني والتعليم الديني ولكل منهما مدارسه ومراكزه واتجاهه وعقليته وأسلوبه وطريقته . لقد كان في البلاد الإسلامية تعليم موحد ولكنه يختلف في نواحي تخصصه فابن سينا الفيلسوف والطبيب والغزالي الصوفي المتكلم الفقيه ، والباقلاني المتكلم ومن قبلهم الجاحظ الأديب وأبو حنيفة الفقيه وأبو الحسن الأشعري المتكلم يشتركون جميعاً في ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية ويشاركون في علومها المتنوعة وإن كانت كل واحد منهم قد تخصص في ناحية أو برز في علم .

ولكن حال العالم الإسلامي اختلف بعد اتصاله بالحضارة الغربية ومحاولته تقليدها والاقتباس منها وقيامه بنهضة علمية على غرارها فكان للثقافة في البلاد الإسلامية مصدران مختلفان ونوعان متباينان .

١ - أحدهما المصدر القديم والثقافة الموروثة وتنتشر هذه الثقافة وتدرس علومها وكتبها في حلقات علمية خاصة وفي مدارس قديمة يقيم فيها العلماء وطلاب العلم وفي معاهد عالية مشهورة كالأزهر والزيتونة والقرويين .

وقد استمرت هذه المراكز في عملها العلمي ولكن في معزل عن التطور العلمي وعن النهضة الحديثة وبدلاً من أن تصلح وتجدد لتكون منطلقاً للنهضة العلمية الحديثة انشئت مراكز التعليم الحديث خارج نطاقها وفي معزل عنها وعن تأثيرها فكانت المدارس الحديثة والجامعات .

وأخذت هذه المدارس القديمة في الضعف بسبب بقائها جامدة غير متطورة معزولة عن الحياة فقل الإقبال عليها وضائق سبل العيش بالمتخرجين منها بقدر ما كثر الإقبال على المدارس والجامعات الحديثة حتى أصبح المتخرجون منها يحتلون مراكز العمل والتوجيه في الحياة العلمية فمهم الموظفون والحكام ومنهم الأطباء والمهندسون وسائر المختصين من أرباب المهن التي تحتاج إلى تثقيف وتعليم فانعزل الأولون عن الحياة وانكمشوا وشعروا بالفضاضة والنقص وضعف تأثيرهم في مجرى الحياة وأغلقت في وجوههم أبواب العمل ومراكز التوجيه وسبل العيش وفتحت للآخرين الأبواب وكثرت موارد الرزق وأسندت اليهم الوظائف والأعمال التوجيهية .

لقد كانت هذه الحال ضربة قاصمة للثقافة الإسلامية وللدين

نفسه أبعدت الدين عن الحياة والحياة عن الدين ولم تغنِ مطلقاً
جميع محاولات الإصلاح التي قام بها المصلحون لتلك المدارس
والمعاهد الدينية لأنها لم تحل أصل المشكلة ولم تبحث أسباب
الأزمة فأصلاحات الأزهر منذ عهد محمد عبده لم تكن إلا
محاولة للحاق الأزهر بركب الحضارة وتزييناً لظاهره وتقريباً
له من المدارس الرسمية والجامعات التي بقيت هي الأسوة في
الافتداء فكانت غاية كل مصلح أن تكون المعاهد الدينية
الثانوية والعالية في مستوى المعاهد والمدارس المدنية . وهكذا
بقي الإزدواج الذي هو أصل البلاء وبقي ما ينتج عنه من
وجود عقليتين مختلفتين وتكوين فئتين من المثقفين بثقافتين
مختلفتين إحداهما دينية ولكنها قديمة في تفكيرها وأسلوبها
عقيمة في طريقها منعزلة عن الحياة ضعيفة التأثير فيها والأخرى
مدنية أو علمانية أو لا دينية ولكنها غنية في تفكيرها جديدة
في أسلوبها متصلة بالحياة ومشكلاتها ممسكة بزمام التوجيه
الفكري والاجتماعي والسياسي .

إن هذا الإزدواج وجد منذ أوائل هذا العصر وبقي حتى
الآن وتجلى في مثل الأزهر والجامعات في مصر وفي الزيتونة
والمعاهد والجامعة في تونس وفي القرويين والمدارس والجامعات
في المغرب وفي الكليات والمعاهد الدينية وما يماثلها في المملكة
العربية السعودية إلى جانب المدارس الرسمية وجامعة الرياض .
إن هذا الإزدواج هو مصدر البلاء والآفة الكبرى والسبب

المباشر لإضعاف الدين والتقليل من شأنه وتشويه الصفة الأساسية التي تتصف بها الحضارة الإسلامية وهي صفة الوحدة والتوحيد ونفي الازدواج والاثنية التي هي مصدر البلاء وسبب الأمراض في الحضارة المسيحية الأوروبية .



إن ما ذكرناه من مظاهر الحياة الثقافية وأوضاع التعليم الديني والثقافة الإسلامية وما وصفناه من النقائص والأعراض المرضية في النظام الثقافي في البلاد الإسلامية يختلف من بلد إلى بلد فإن بعض البلاد حاولت الإصلاح في برامج الدين أو في غير ذلك من النواحي وسعت إلى تدارك النقص وإزالة الأخطاء ولكننا نعتقد أن هذه القضية الكبرى يجب أن تعالج معالجة أساسية جذرية ولا بد من وضع تخطيط أساسي يكون أساساً لبناء نظام ثقافي قوي صالح خال من النقائص التي ذكرناها .

اتجاهات ومحاولات جديدة

لقد بدت في أكثر البلاد الإسلامية بوادر إصلاح جديدة بل أساسية أحياناً تداركت بعض النقائص التي ذكرناها آنفاً وسار الإصلاح من منطلقين وفي اتجاهين أحدهما من معاد التعليم الديني لتغذيتها بالثقافة العامة الحديثة والآخر من التعليم

العام ولا سيما الحكومي بتقوية الثقافة الإسلامية ويبدو ذلك في
الظواهر التالية :

١ - تطوير التعليم في الأزهر وذلك بتقسيمه إلى درجات
موازية لدرجات التعليم العام ومعادلة لها وتقوية مواد الثقافة
العامية الحديثة فيها وتأسيس التعليم العالي في الأزهر على أسس
جامعية وجمعه متنوع الاختصاصات بحيث يشمل الطب
والهندسة وغيرها بالإضافة إلى كلية الشريعة وأصول الدين
واللغة العربية وإدخال تعديلات أساسية في المناهج . هذا
بصرف النظر عن الانتقادات التي يمكن أن توجه للنظام الجديد
من جهة التطبيق والتوجيه .

٢ - إحداث جامعات ومعاهد جامعية عليا على أسس
جديدة أو مشتملة على شيء من التجديد من ذلك تأسيس كلية
الشريعة في جامعة دمشق (١٩٥٤) والجامعة الإسلامية بالمدينة
المنورة وكلية الشريعة في مكة وأخيراً الجامعة الإسلامية بأم
درمان في السودان .

وقد أتيح لي شرف الاشتراك في هذا التخطيط الجديد
لكلية الشريعة بجامعة دمشق ثم بجامعة الأزهر (١٩٦٠)
والجامعة الإسلامية بالمدينة سنة (١٩٦٢) وما بعدها وكلية
الشريعة في مكة المكرمة (١٩٦٥) والجامعة الإسلامية بأم
درمان (١٩٦٦) وقبل كثير من الاقتراحات والمشروعات التي

قدمتها لهذه الجامعات فكان ذلك طريقاً لالتقاءها واشتراكها في كثير من الخطط .

٣ - إحداث ثانويات شرعية أو دينية تضاهي وتعاادل الثانويات كما حدث في سورية .

٤ - زيادة العناية بتدريس الدين في المدارس الحكومية كما وكيفا في كثير من البلاد كسورية والسودان وغيرها .

خطة لنظام ثقافي إسلامي :

يجب أن توضع للبلاد الإسلامية خطة لنظام ثقافي إسلامي يبنى على الأسس التالية :

١ - وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر وقد بينا آنفاً ما نقصده بالازدواج .

٢ - صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلامية أي أن يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة والمفاهيم الإسلامية .

٣ - إحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي - العقلي والنفسي - وعياً لمبادئ الإسلام وتعاليمه وقضايا الإسلام الكبرى في العصر الحاضر وعياً لوحدة العالم الإسلامي ومصادر قوته وما يجابهه من أخطار .

٤ - الوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الإسلامي .

٥ - وصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الإسلام ونظرتهم وسد حاجات المجتمع الإسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

٦ - اختيار الطرق والأساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله في النفوس فـيراعى في ذلك السن والمستوى العقلي مع العناية بالأصول والمبادئ وتقديم القضايا الهامة والعودة إلى القرآن والسنة ووصل ما بينهما وبين الآراء الفقهية . وفيما يلي إيضاح لهذه الأسس التي سردها .

١ - وضع نظام ثقافي إسلامي موحد يزيل الازدواج الواقع في ثقافتنا .

إن الثقافة التي تكوّن الجيل المسلم في البلاد الإسلامية في العصر الحاضر مزدوجة المصدر ومؤدية بالنتيجة إلى عقليتين مختلفتين .

أ - فهناك ثقافة تلقن في المدارس التي أنشأتها الحكومات في البلاد الإسلامية على نمط المدارس المنشأة في البلاد الأوروبية من ابتدائية وثانوية وعالية . وهذه الثقافة بشكلها الحاضر وجميع ملامساتها أخذت واقتبست من الثقافة الأجنبية وهي محتوية على : مواد علمية خالصة كالرياضيات والطبيعات بفروعها المختلفة ، وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم السائدة في أوروبا سواء أكانت مادية إلحادية

أم دينية ، وعلى أساليب للتعليم وطرائق للبحث وهي نتيجة لتجارب طويلة واختبارات متوالية . وقد ألصق أحياناً بهذه الثقافة رقعة متميزة عنها هي (مادة الدين) وفيها يعلم الاسلام وأحكامه وعقائده وهي مادة في كثير من البلاد الإسلامية تختلف في طريقة عرضها وتعليمها وفي مفاهيمها ومنطقها اختلافاً كبيراً عن بقية المواد الثقافية ولذلك لا يكون أثرها قوياً بل قد يحدث من التنافر بين هذين اللونين من الثقافة نتائج سيئة في عقول الطلاب ونفوسهم .

ان هذه الثقافة المقتبسة من بلاد تختلف عن البلاد الإسلامية في عقائدها وأفكارها وفي عاداتها ونظام حياتها بقيت هي الأسس للنظام الثقافي في البلاد الإسلامية في جميع درجات التعليم من ابتدائي وثانوي وجامعي وولدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للعقلية الأوروبية في مفاهيمها وأفكارها ونظرتها الى الحياة . ولا قيمة بعد هذا لبعض المظاهر الإسلامية أو الشعائر الدينية التي قد يحافظ عليها بعضهم لأن الأساس الفكري ليس أساساً إسلامياً سليماً ولا يولد تفكيراً ولا سلوكاً إسلامياً في الحياة الفردية والاجتماعية ذلك لأن الجو العام لهذه الثقافة هو جو فلسفة خاصة مغايرة للإسلام لأن الثقافة حتى المواد العلمية الخالصة منها كالكيمياء والفيزياء شحنت بأفكار لا علاقة لها في الأصل ولا هي من مستلزماتها ولكنها دمست فيها وخالطت نظرياتها وتجلت في تعابيرها حتى كان هنالك اقتران بين هذه

العلوم التي تدرس الطبيعة والمادة والمذاهب الفلسفية الطبيعية والإحادية التي عاشت معها وعاصرتها في أوروبا .

إن هذه العلوم الطبيعية ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بها، وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الأقل . كما أن هذه الثقافة الحديثة يجب أن يستفاد مما تشتمل عليه من أساليب العرض الحسنة ومناهج البحث الصحيحة ففيها الكثير النافع مما وصلت إليه تجارب الإنسان في تقدمه الفكري والحضاري .

ب - أما المصدر الثاني للثقافة في البلاد الإسلامية فهو الثقافة الإسلامية الموروثة وهي التي تعلم في حلقات العلماء والمدارس الدينية القديمة التي استمر بعضها والمعاهد العالية كالأزهر والزيتونة والقرويين .

إن هذه الثقافة إسلامية الأساس ولكن تعاقبت عليها القرون واختلطت فيها المذاهب والآراء وتشعبت بها الطرق والمسالك حتى غدت خليطاً من تعاليم الإسلام في كتابه الكريم وسنته النبوية ، ومن طرائق المتكلمين على اختلاف منازعهم ومذاهبهم ، وما شاب الكلام من الفلسفة اليونانية وأفكارها ، ومن مذاهب الفقهاء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها المدارك وانحط فيها التأليف وضاعت فيها مذاهب التفكير وابتعدت عن مصدري الإسلام الأساسيين الكتاب والسنة ، وسد باب الاجتهاد والتزمت فيها أقوال الشيوخ دون النظر إلى دليل

الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار الأئمة المجتهدين. أضف
الى ذلك كله ما خالط الثقافة الإسلامية من علوم أخرى لا تزال
تدرس كما كانت في العصور السالفة مع ان تقدماً كبيراً طرأ
عليها وتغيرت نظرياتها وحقائقها تغيراً أساسياً كالفلك وسائر
العلوم الطبيعية وليست هي في الأصل من العقائد حتى لا تتبدل
أو من العبادات حتى يتوقف عندها بل هي من تجارب الانسان
في هذا الكون ومن علمه وتأمله فيما خلق الله (الذي يزداد
يوماً بعد يوم) .

وقد صيغت هذه الثقافة في قوالب جمدت وثبتت ووضعت
على طرائق أصبحت قديمة تحتاج الى تجديد واصلاح وكانت لغة
التعبير عنها في العصور الأخيرة تتصف في كثير من الأحيان
وفي أكثر الكتب بالتعقيد والبعد عن أساليب العرب الفصيحة
وتنزل كثيراً عن مستوى البلاغة التي كانت تتصف بها تصانيف
السلف وتآليف المتقدمين من أهل القرون الإسلامية الأولى .

إن هذه الثقافة التي سميت ثقافة إسلامية هي مزيج من
الفلسفة والعلوم القديمة وعقائد الإسلام وأحكامه ومذاهب
المتصوفة والمتكلمين والفقهاء في عصور متعاقبة مختلفة وأساليب
التفكير والتعبير التي تنوعت واختلفت ارتفاعاً وانخفاضاً
خلال العصور .

إن هذه الثقافة هي الأساس في تكوين عقلية فريق من
أبناء الجيل وهم الذين يتخرجون من المعاهد الدينية على اختلاف

درجاتها ومستوياتها ومن حلقات العلماء التي لا تزال تعقد في البيوت والمساجد والمدارس وهي مع ذلك ليست عقلية واحدة في اتجاهاتها بل هي أحياناً عقلية الفقهاء وثارة عقلية صوفية مغالية في التصوف الذي ساد العالم الإسلامي في القرون الأخيرة وثارة أخرى عقلية سلفية وبين هذه العقليات أحياناً اختلاف كبير وتناقض شديد .

إن العقلية التي تكونها هذه الثقافة الإسلامية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية التي تكونها الثقافة الحديثة ومن هنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وفي غيرها من المجالات. وهو صراع له نتائج خطيرة سواء أكانت الجهة المنتصرة هذه أو تلك لأن الصراع بني على أساس فاسد ولأن الصراع خاطيء وفاسد يصور الأوضاع على غير حقيقتها ويجعل المسلمين في جبهتين وهم ليسوا كذلك فهو يصور الثقافة الإسلامية القديمة على أنها هي التي تمثل الإسلام وإن انتصارها هو انتصار الإسلام وتصور (الثقافة الحديثة) على أنها تمثل حضارة كافرة عدوة للإسلام وإن انتصارها على تلك الثقافة هو انتصار للكفر على الإيمان وفي كلا النظرتين يختلط الخطأ بالصواب والحق بالباطل فليس كل ما في الثقافة القديمة واجب الالتزام إسلامياً وليست كل عناصره إسلامية حتى يجب الدفاع عنها وكذلك الثقافة الحديثة ليست كلها منافية للإسلام حتى توضع في موضع الخصومة .

إن حل مشكلة الازدواج يكون باقامة نظام إسلامي موحد
يبنى على تعدد الاختصاصات لا على تعدد العقليات والمصادر
الحضارية فيجب أن يدخل الإسلام إلى المدارس الحديثة
والجامعات دخولا طبيعيا صحيحا فتقام على أسس إسلامية .
كما يجب أن تقام المدارس الدينية والمعاهد الإسلامية العالمية على
أسس جديدة فيوصل بينها وبين منابع الإسلام الأولى من جهة
وبينها وبين الحياة من جهة أخرى وتستفيد من تجارب البشر
وتطور العلوم وتحسن الأساليب حتى تصبح هذه المدارس وتلك
من نوع واحد وعلى مستوى واحد تنتج عقلية واحدة هي
العقلية الإسلامية .

فثمة ضرورة ملحة للتفسيق بين الأزهر والجامعات في مصر
وبين الزيتونة والمدارس والجامعات في تونس وبين القرويين
والمدارس والجامعات في المغرب لا على أساس مسح الأزهر
والزيتونة والقرويين وإلغاء دورها ومحو خصائصها الذاتية
وجعلها صورة مماثلة لتلك الجامعات ونقل برامجها أو إدخال
النظم الشكلية عليها أو تحويلها عن أهدافها ومفاهيمها وعقائدها
الإسلامية إلى فلسفات ومفاهيم أخرى مخالفة ولكن بوضع
تخطيط جديد للثقافة في البلاد الإسلامية تلتزمه هذه المدارس
والمعاهد والجامعات .

٢ - صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة
الإسلامية .

إن الواقع في البلاد الإسلامية هو أن التعليم بوجه عام
ونعني به التعليم الرسمي الأكثر انتشاراً واتساعاً مصطبغ
بصبغة غير إسلامية ومشحون من جميع جوانبه بأفكار ومفاهيم
غير إسلامية فقد أحيطت المواد الثقافية حتى العلمية الخالصة
وغشيت وأثربت بعقائد وأفكار وفلسفات مغايرة للإسلام
وليس هي في الأصل من صميم هذه المواد ولا من مستلزماتها
المنطقية ولكنها كانت وليدة ظروف الحضارة الأوروبية الخاصة
فنشأت العلوم في أوربا في جو هذه المذاهب والعقائد فاقتربت
بها ولازمتها ثم انتقلت معها الى البلاد الإسلامية .

إن العلوم التي تدرس الكون والطبيعة وكانت جزءاً هاماً
في الحضارة الإسلامية وكان للمسلمين أثر كبير في تقدمها وقد
نقلها الأوروبيون عنهم هي علوم ضرورية هامة إذ عليها تبنى
حياة الإنسان المادية وتقدمه المادي وهي تحقيق قوله تعالى
(سُرِّبَهُمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ) ولكن يجب تحريرها مما خالطها من النظريات
الإلحادية والآراء السخيفة المؤهلة للطبيعة ومن التعابير المتضمنة
عن قصد أو غير قصد لهذه الآراء المدسوسة فيها والتي لا علاقة
لها بموضوع هذه العلوم نفسها بل هي خارجة عن اختصاصها .

إن التعليم في جميع مستوياته ودرجاته وفي أنواعه وفروعه
يجب أن يبنى على أساس واحد وتنظيمه فكرة واحدة
مشتركة بين جميع أقسامه بصبغة واحدة في الاتجاه والتفكير

والعقيدة، وذلك بأن يكون أساسه المشترك العقيدة الإسلامية وطبيعته العامة هي الطبيعة الإسلامية وهذه هي حال جميع البلاد التي تلتزم فلسفة معينة في الحياة وتدين بعقيدة مشتركة تبناها الدولة كالماركسية في البلاد الشيوعية والكاثوليكية في البلاد التي تلتزمها في دستورها .

فالتعليم الابتدائي هو تعليم إسلامي في المرحلة الابتدائية والتعليم الثانوي في جميع فروع - العام والمهني - هو كذلك تعليم إسلامي لا يكتفى فيه بتعليم الدين على أنها مادة تضاف إلى المواد الثقافية الأخرى وإنما يجب صياغة جميع المواد العلمية صياغة إسلامية حتى العلوم الطبيعية . فالكيمياء والفيزياء في البلاد الشيوعية تبنى على المنطق الجدلي والفلسفة الجدلية وتجعل تطبيقاً لقانون تصارع الأضداد الذي تعتقد الماركسية أنه قانون الحياة العام . وفي البلاد الإسلامية يجب أن تكون العلوم الطبيعية بقوانينها وجميع ظواهرها مظهراً من مظاهر قدرة الله وتحقيقاً للاتجاه القرآني في النظر إلى الكون .

وأما المواد الثقافية النظرية كالفلسفة والاجتماع والتاريخ وما إليها فهي المواد الهامة التي تكون عقلية الطالب وتكون مفاهيمه وأفكاره فيجب أن يكون التاريخ مبنياً على أساس النظرة الإسلامية في تقويم الحوادث التاريخية وتفسيرها وتعليلها والحكم لها أو عليها ويجب أن يدرس (العالم الإسلامي) ويخص بالبحث في مادة مستقلة أو مع دراسة المجتمع القومي الخاص

(العربي أو الهندي أو التركي) حتى يتولد الشعور بالانتماء إلى العالم الإسلامي إلى جانب الشعور الطبيعي في الانتماء إلى الوطن والقوم الذي ينتمي إليه الطالب وحتى تكون لديه فكرة عامة عن العالم الإسلامي وأجزائه ومشكلاته ويشعر برابطة الأخوة الإسلامية شعوراً قوياً .

والفلسفة بفروعها المختلفة وخاصة علم الاجتماع يجب أن توضع لها مناهج جديدة بحيث تؤدي إلى دعم الفكرة الإسلامية وأن تكون نظرة الإسلام إلى الوجود أو فلسفته الأساسية المنبثقة من القرآن والسنة - لا ما يسمى خطأ بالفلسفة الإسلامية عادة - هي الأساس في تعليم الفلسفة ، وتعرض المذاهب الفكرية الأخرى عرضاً نقدياً تكون فيه مقاييس الفكر الإسلامي بعد اقرارها وإثباتها أساساً للنقد والتقويم .

وإذا درست حينئذ المعلومات الدينية المناسبة للمستوى في مادة خاصة فإنها تؤدي ثمراتها وربما كان قسم كبير منها موزعاً في مختلف المواد الثقافية الأخرى فنظام الحكم الإسلامي قد يدرس في مادة التربية الوطنية أو المجتمع وفي القانون الدستوري في الجامعة ونظام الأسرة يدرس في علم الاجتماع ، وعلى كل توضع المناهج كلها على أساس تخطيط عام فلا ينفرد أساتذة مادة من المواد بوضع منهاجها فبذلك يتم الارتباط والتنسيق بينها ويتم حسن التوزيع وينتفي التكرار .

والهم على كل حال في تدريس الإسلام لفت النظر والاهتمام

بخطوطه العامة ومعالم عقيدته الأساسية وأهدافه وأسس وعدم الإغراق في الجزئيات وتجنب توليد العصبية الشديدة للجزئيات والتفصيلات ولا سيما الآراء المذهبية لأن شدة الاهتمام بها وشدة التعصب لها تضعف الاهتمام بالأخطار الكبيرة المحدقة بالاسلام كخطر استعمار غير المسلمين للمسلمين وخطر الإلحاد والأفكار المتفرعة عنه وخطر الإباحية وبالجملة خطر المذاهب والأفكار المخالفة لأسس الإسلام والتي تغزو البلاد الإسلامية .

ويجب أن توضع مناهج الدين وتعلم بطريقة تجنب المسلمين الانقسام إلى معسكرات مذهبية وفرق مختلفة ما داموا في إطار المذاهب الإسلامية التي تتفق على الإيمان بالله ورسله وخاتم أنبيائه وبالقرآن كتاباً منزلاً وشريعة واجبة الاتباع ، وأما ما وراء ذلك من المذاهب الفقهية المختلفة والمذاهب الكلامية فمبناها على التوسع والتسامح لا على التضييق والتعصب وعلى اللقاء والمودة لا على التشاحن والجفاء .

أما التعليم الجامعي في البلاد الإسلامية فيجب أن يكون ثمة نصيب شائع مشترك في جميع أقسامه وكلياته من الثقافة الإسلامية الأساسية التي تعطي فكرة عامة عن الإسلام ونظامه في مقابل الأنظمة العقائدية الأخرى كالديمقراطية والماركسية أو الاشتراكية كما هي الحال في البلاد الاشتراكية التي تعلم العقيدة الماركسية حتى في كليات الهندسة والطب والعلوم ويمكن أن تسمى هذه المادة التي تعمم على جميع

الكليات باسم (نظام الإسلام) أو باسم (الثقافة الإسلامية الأساسية) أو (حضارة الاسلام) . ويعنى بالثقافة الإسلامية بوجه خاص في الكليات التي لها علاقة خاصة بها من حيث موضوعها وبوضع لها منهاج بحسب اختصاص الكلية ففي كلية الحقوق تكون دراسة الحقوق الإسلامية هي الأساس الذي تبنى عليه الدراسة لا أن تكون مادة الشريعة الإسلامية مادة ملحقة وملصقة بمناهج حقوقي مقتبس من أنظمة الغرب الأجنبية وفي كلية الآداب يعتنى بدراسة الإسلام عناية خاصة في قسمي الفلسفة والتاريخ بحيث يكون أساساً تبنى عليه الدراسة فيها ويتوسع في دراسة الجوانب المتعلقة بكل فرع من هذه الفروع من الثقافة الإسلامية وكذلك الحال في قسم اللغة العربية حيث يعتنى بدراسة القرآن والحديث وتاريخ الأدب بوجه عام والأدب الإسلامي بوجه خاص ولا سيما الأدب الإسلامي المقارن بين لغات الشعوب الإسلامية . أما كلية التربية في الجامعات الإسلامية فهي في الحقيقة كلية أساسية هدفها دراسة الطرق العلمية وأفضل الأساليب التي بها يمكن أن يعلم الدين وتنهض التربية الإسلامية وينشر الإسلام فيدرس علم النفس وعلم الاجتماع وأصول التربية العامة والخاصة في سبيل اختيار أحسن الطرق لتخريج المعلمين والمدرسين والمربين والدعاة سواء في المدارس أو في المجتمع .

٣ - أما الأسس الأخرى التي ذكرناها من إحداث وعي إسلامي ووصل ما بين الدين والحياة والأخذ بالأساليب الحديثة الصالحة التي تؤدي الى حسن تقبل الدين وتعاليمه وحسن تفهمه والانطباع بطابعه فلا بد لها من دراسة تقوم بها لجان مختصة لوضع خطة تفصيلية لتحقيق هذه الأهداف .

وسائل لتحقيق الأهداف :

إن وضع الخطط التفصيلية لنظام ثقافي إسلامي يحقق الشروط التي ذكرناها وهي انبثاقه عن الفكرة الإسلامية وتلبيته لحاجات المجتمع الحديث وقدرته على الوقوف بقوة أمام الأنظمة الثقافية الأخرى من ديمقراطية وماركسية وغيرها يحتاج إلى :

١ - تقارير تفصيلية عن الوضع الثقافي في كل بلد إسلامي يضعه خبراء في ضوء الأفكار التي شرحناها .

٢ - تأليف لجان اختصاصية يضمها مؤتمر إسلامي عام يعقد لشؤون التربية والثقافة خصيصاً ، لتضع كل منها الخطة التفصيلية لكل من جوانب هذا النظام الثقافي .

٣ - اقامة مؤتمر إسلامي عام لشؤون التربية والتعليم والثقافة يناقش الخطط ويقرها في شكلها النهائي .

٤ - اتخاذ الوسائل وسلوك الطرق لاقتناع حكومات البلاد

الإسلامية بالأخذ بهذه الخطط بعد القيام بالدعاية لها في الرأي العام الإسلامي .

هذا ما رأيته بعد اطلاعي على حالة الثقافة في كثير من البلاد الإسلامية وبعد أن خبرتها خبرة ممارسة واختصاص خلال سنوات عديدة أرجو أن تكون محلاً للنظر وموضعاً للنقد وإبداء الملاحظات من أهل الرأي والاختصاص للوصول إلى النتائج الصحيحة لبعث الإسلام وأحياء فكرته وعقيدته ونظامه في هذا العصر الذي هو أحوج ما يكون إليه .



نحو فلسفة إسلامية للتربية

- ١ -

إن غاية التربية في كل بلد اتخاذ أحسن الطرق لتكوين الإنسان المثالي في نظر ذلك المجتمع وإعداد الجيل وتأهيله من النواحي العلمية والعملية والخلقية التأهيل الذي يجعله يصد حاجات ذلك المجتمع ويحقق أهدافه ومثله العليا وينسجم معها . ومن هنا كانت في العالم فلسفات للتربية لا فلسفة واحدة تختلف باختلاف (الأجواء العقائدية) التي تعيش فيها الثقافات بألوانها . وإذا استثنينا العلوم المادية المحضة وجدنا أن في العالم ثقافات إنسانية مختلفة ومتعددة بتعدد النظم العقائدية (الأيديولوجيات) فهناك تربية ماركسية وتربية مسيحية كاثوليكية وتربية ديمقراطية ، ذلك أن كل واحدة

هذه خلاصة لبحث مفصل ألقى في ندوة استمرت عدة أيام لمناقشة هذا الموضوع في قاعة الامتحانات في جامعة الخرطوم بدعوة من جمعية الفكر الإسلامي فيها واشترك فيها عدد من الأساتذة والاختصاصيين في عام ١٩٦٦ وأرجو أن تتاح لي الفرصة لنشر تفصيل هذا البحث .

منها تنبثق عن فلسفة معينة لها نظرية معينة إلى الانسان كما هو في الواقع ونظرة إلى الانسان كما يجب أن يكون ، وكذلك إلى المجتمع في واقعه وفي الشكل الذي يجب إيصاله إليه . والتربية تستهدف نقل الانسان الواقعي الى الانسان المثالي ، ولكل فلسفة من الفلسفات نظرتها إلى الإنسان في واقعه وإلى ما يجب أن يكون عليه .

أما التربية في جانبها الآخر الذي هو الأساليب والطرائق فذلك موضوع مختلف قد يكون موضع اتفاق بين أصحاب الفلسفات المتعارضة ، وليس هو موضوع عنايتنا الآن في هذا البحث . وإذا كان الأمر كما أوضحنا ، فهل نمك الآن فلسفة إسلامية للتربية ؟ أو ليس للإسلام نظرة إلى الإنسان في واقعه ونظرة إلى الانسان المثالي أو ما يجب أن يكون عليه وإلى الأهداف التي يجب أن يحققها في المجتمع ؟ لا شك أن الجواب على هذا السؤال إيجابي ، وعلى هذا يجب أن يكون ثمة فلسفة للتربية أو أسس للتربية تتصف بكونها إسلامية كما تتصف غيرها بكونها ماركسية أو ديمقراطية أو مسيحية كاثوليكية أو مسيحية بروتستانتية . وإن واقع البلاد الإسلامية إنها تأخذ في كليات التربية ببعض هذه الفلسفات لا بفلسفة إسلامية للتربية . ونرى أن من الواجب الحتم على الاخصائيين وضع مثل هذه الأسس أو الفلسفة الإسلامية للتربية ومن رأينا أنها تستمد قوامها من العناصر الآتية :

١ - نظرة عقائدية شاملة للإسلام وواضحة .

٢ - نظرة الإسلام إلى الإنسان الواقعي وإلى الإنسان المثالي .

٣ - نظرة الإسلام إلى المجتمع المثالي إنطلاقاً من المجتمع الواقعي الحاضر مع مراعاة ظروف المرحلة التي نعيش فيها من سائر النواحي والمجالات .

- ٢ -

ويشتمل القسم الأول على نظرة الإسلام إلى الكون (الطبيعة) والإنسان والله وصلة الإنسان بالله وبالكون ونظرته إلى المعرفة ومصدرها العقل والوحي كل في مجاله .

ويشتمل القسم الثاني على نظرة الإسلام إلى الإنسان وتركيبه وأنه يتألف من عناصر أو جوانب ترابية وحيوانية وعقلية وروحية وكذلك ميوله وغرائزه الواقعية واستعداده لطريقي الخير والشر كما يشتمل هذا القسم على (الإنسان المثالي) في نظر القرآن وعلى (نظام القيم) في الإسلام أي موقع كل من القوة والعمل والعقل وغيرها من القيم في نظامه الأخلاقي وكل ذلك كما يستنبط ويتجلى في القرآن الكريم وكما توضحه السنة حين الحاجة للإيضاح .

- ٣ -

وبعد عرض هذه العناصر التي تمثل النظرة العقائدية العامة للإسلام والنظرة الواقعية للإنسان الفرد والمجتمع والنظرة

الخلقية للإنسان الفرد والمجتمع ، يبدو عمل التربية واضحاً وهو اتخاذ أحسن الطرق لنقل الإنسان من الصورة الواقعية إلى الصورة المثالية بوجه عام وإلى النماذج المتعددة التي يتطلبها المجتمع المثالي سواء من جهة التربية الجسمية أو الحسية أو العقلية أو الخلقية أو الروحية ، وتكون هذه الفلسفة التربوية الإسلامية ملخصة حينئذ في تنمية جميع عناصر التركيب الإنساني مرتبة ترتيبها في الأهمية على هذا التسلسل .

الجانب التربوي - الحيواني

جانب الحواس والعقل

الجانب الروحي والخلقي (وفقاً لاتجاه وأهداف محددة في الإسلام) .

ويكون إعداد هذا الإنسان متناسباً مع أهداف المجتمع الذي يراه الإسلام مثالياً .

- ٤ -

إن أولى واجبات التعليم في البلاد الإسلامية تلقين النظرة العقائدية الشاملة للإسلام والنظرة الخلقية بطريقة واحدة مترابطة وشاملة .

وإن تدريس جميع المواد الثقافية بلا استثناء يجب أن يجري في جو هذه العقائدية الإسلامية وبذلك ترتبط هذه

المواد بعضها ببعض لأن هذه النظرة نفسها تكون هي الرابطة والمنسقة لها ويكون الدين بمعنى العبادة أحد هذه المواد ولكن النظرة الإسلامية تكون شاملة لجميع المواد ومنها الدين بمعناه الضيق والمحدود . ويمكن أن تشرح وتفصل هذه الحطة بالنسبة لجميع المواد وعلى جميع مستويات التعليم .

- ٥ -

إن واقع التعليم حالياً يخالف لهذا كل المخالفة لما ذكرنا لأن يلقن جميع المواد في جو عقائدي ووفقاً لفلسفات وعلى أساس مفاهيم مخالفة للإسلام ، ويدرس إلى جانبها الإسلام في صورة درس (الدين) وعلى أسلوب سيء مشوش ومضطرب في كثير من الأحيان ومن هنا نشأت العقد الفكرية والتناقضات في عقلية الجيل المسلم التي توجد عنده الاستعداد للانحراف أو الخروج عن الإسلام فيما بعد إذا صادفته ظروف فكرية أو نفسية تنمي هذه التناقضات وهو ما يحدث كثيراً .

إن تعاون الاختصاصيين في علم النفس والاجتماع والتربية من المؤمنين بالاسلام والمزودين بثقافة إسلامية كافية يوصلنا إلى إقامة نظرية إسلامية للتربية وأسس أو فلسفة للتربية بتوضيح النقاط السابقة وتفصيلها ويؤدي ذلك في نظري إلى نتائج هامة تربوياً وخلقياً ويوفر علينا كثيراً من الأزمات الواقعة في مجتمعنا في مختلف المجالات ويجعل كليات التربية في البلاد الإسلامية منتجة لا مستوردة ويمكنها أن تتفاعل وتتبادل

وجهات النظر على أساس المساواة على الأقل مع مثيلاتها في
البلاد الأخرى التي تدين بفلسفات مغايرة . وأما التربية
باعتبارها صناعة وفناً موضوعه الطرق المفصلة لتنمية بعض
الجوانب أو تدريس المواد العلمية وما يتبع ذلك من الأمور
فهي مشاعة بين الناس على اختلاف فلسفاتهم ومذاهبهم وإن
ما يستحوذ الآن على تفكيرنا هو الجانب الأول من التربية وهو
أسس التربية وفلسفتها ليكون لنا في هذا الجانب استقلال
كاستقلال أصحاب المذاهب والفلسفات الأخرى في سائر
بلاد العالم .



كيف نكتب تاريخنا

وجهت مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي في سورية أسئلة لعدد من الأساتذة لطرح الأجوبة على بساط البحث والمناقشة والبحث التالي كان جوابي على جملة هذه الأسئلة وقد نشر مع أجوبة الأساتذة الآخرين في العدد (٤١) في شهر تموز (يوليو) ١٩٦٥ من المجلة .

وهذه هي الأسئلة :

١ - ما رأيكم في المصادر المتوفرة حالياً عن التاريخ العربي ؟

٢ - ما هي الشوائب التي تحط من قيمة تاريخنا والتي ينبغي التخلص منها ؟

٣ - ما هو قولكم في الرأي الذي يعتقد أن صيغة التاريخ المتوفرة حالياً تقتصر على تاريخ الملوك فحسب دون الشعب .

٤ - تجري في بلدان كثيرة محاولات لاعادة كتابة التاريخ وفقاً للتغير المذهبي الذي تناول شكل المجتمع .. أفلا ترون ضرورة ذلك بالنسبة لتاريخنا العربي ؟

٥- ما هي المبادئ التي يمكن ان تعاد بموجبها كتابة التاريخ؟

٦ - في هذه الحالة أتتصورون منهجاً معيناً لهذه العملية؟ ثم كيف يمكن ان تسد مشكلة المصادر ؟

ان دراسة التاريخ دراسة موحية وموجهة وحافزة ، وإن نكن تصويراً لوقائع ماضيه ومحاولة لنقل الحقيقة كما هي ، مع انتقاء هذه الوقائع وطريقة عرضها ، تؤثر تأثيراً قوياً في تفكير الجيل الذي يدرس هذا التاريخ وفي نفسيته وعواطفه .

ان التاريخ القومي يشتمل على وصف الاتجاهات الصالحة والصفات الطيبة والمكاسب الحضارية العامة ليستمر الجيل في سلوك الطريق القويمه ويناضل في سبيل المثل العليا . كما يشتمل على المساوىء والظواهرات التي تعتبر أمراضاً اجتماعية وأسباباً للانحطاط أو الهلاك كمظاهر الترف في العصر العباسي وفي أواخر العصر الأندلسي وكالاستبداد الفردي الذي ساد في بعض العصور ، ليحاول الجيل دفعها عن مجتمعه الحاضر .

فتاريخ كل أمة يعطي صورة عنها ويحدد موقعها بالنسبة إلى تواريخ الأمم الأخرى ، ويشعر الجيل الجديد بموقعه من أمته بين ماضيها ومستقبلها ليتخذ لنفسه طريقاً للسلوك .

وتاريخنا في العصر الحاضر في حاجة إلى إخراج جديد ذلك انه أصيب بآفتين إحداهما ما أصابه من إسفاف وسطحية في عصر الانحطاط الأخير وثانيتهما وهي أدهى وأمر ما أصابه بسبب التقليد الأعمى للتاريخ الأوربي ومفاهيمه ونقل مشكلاته نقلاً والتأثر بنظرات أعدائنا قارة أو الأجانب الذين لا يحسنون فهم تاريخنا وأحكامهم الخاطئة أو المدسوسة من المؤرخين الأوربيين والمستشرقين .

نحن في حاجة إلى نظرة واعية صحيحة لتاريخنا مطابقة لذاتيتنا فيها استمرار لمثلنا العليا منسجمة مع مفاهيمنا ونظراتنا ترينا مفاخرنا الصحيحة حتى نلتزمها ونكملها وعلوبنا وخطائنا حتى نتجنبها . ولا بد لكتابة التاريخ تحقيقاً لهذه الغاية من شروط يجب التزامها أو مبادئ يجب مراعاتها وهي :

١ - الفهم الصحيح لتاريخنا وخصائصه .

٢ - استجلاء منطق هذا التاريخ دون تشويهه بفرض مذاهب جديدة عليه أو تفسيره بواسطة نظريات غريبة عنه أو الاندفاع فيه بدافع العصبية .

٣ - تقويمه بمقاييس انسانية مشتركة وتحديد موقع حضارتنا من الحضارات العالمية الاخرى .

٤ - إحياء التراث وجمع المصادر لاستجلاء هذا التاريخ .
١ - جلاء صحيحاً .

أما الشرط الأول

إن لكل تاريخ (صيغة حضارية) تنظم حوادثه ودوافع
نفسية اجتماعية منبثقة من ظروفه الخاصة وإنما يفسر كل تاريخ
بصيفته الخاصة ودوافعه وأن الخطأ الكبير هو تفسير تاريخ
ما بمنطق تاريخ آخر .

وأن الصيغة الحضارية لتاريخ العرب التي تحدد معالمه
الذاتية بالنسبة إلى غيره والتي اختارها العرب لحضارتهم أو
التي أدت ظروف القدر التاريخي أن تكون صيغة حضارتهم
هي إيمانهم بإيجاد حضارة إنسانية تجتمع عليها الشعوب
والأقوام على صعيد مشترك من المفاهيم الفكرية ونظم الحياة
التي تتحقق فيها المساواة بين البشر وإقامة العدل وسائر
المثل العليا التي تتقدم بالبشرية مادياً ومعنوياً وقد كان
(الإسلام) هو جماع هذه المثل العليا وهو أساس هذه
الحضارة وكان العرب هم المؤمنون به أولاً والداعون إلى
حضارته والمجاهدون في سبيل توطيدها والمشفرون على بنائها .
وكانت خصالهم ومكارمهم الطيبة في العصر الجاهلي خير أداة
مهيئة لهذه القدرة على التنفيذ والاضطلاع بعبء الرسالة .
وقد تحققت فعلاً هذه الحضارة وكانت أعظم خصائص التاريخ
العربي اتصاله بهذه الرسالة وهذه الحضارة ، وأعظم منجزاته
مما لم يسبقوا إليه هو تأسيسهم لحضارة تتعاون على صعيدها
المشترك على أساس من الحرية والمساواة والعدالة شعوب عديدة

آمنت برسالة الإسلام أو قبلت الانضواء تحت لواء نظام
وحضارته فكان موقع العرب في هذه الحضارة هو موقع
(الدعاة) لها و (البناء) و (القادة) المشرفين على التنفيذ
وعلى تحقيق هذا التعاون في سائر مجالات الحياة .

ان كل كتابة أو صياغة للتاريخ تتجاهل هذه الحقيقة
الموضوعية أو تتجنبها أو تقحم عليها نظرة أخرى غريبة
عنها تفسد هذا التاريخ ، بل تفقده أهم مكاسبه الانسانية
والحضارية وهي حقيقة موضوعية تبدو لكل باحث متعمد
مها تكن نحلته أو قوميته .

إن هذه النظرية عدا كونها حقيقة ، تجعل من العرب
شعباً رائداً للانسانية ، مجاهداً في سبيلها من غير أثر ولا
استعلاء . وأما صيغة (الامبراطورية العربية) مثلاً فهي
تجعلنا في صف المستعمرين وتصمنا بوصمة الاستعمار
و (الامبريالية) التي تعني في لغتها الأعجمية الاستبداد الفردي
في الحكم واستعلاء شعب حاكم على شعوب محكومة !

الشرط الثاني

إن هذا الأساس الأول الذي قدمناه هو الذي يمكننا من
استيعلاء منطق التاريخ العربي ، ومعرفة البواعث النفسية
الأساسية المحركة ، فإذا أضفنا اليه العوامل المساعدة والظروف
المحيطة في كل عصر ومرحلة تمكنا من تفسير التاريخ وتعليل
حوادثه .

ولذلك يجب أن نتجنب في كتابة تاريخنا اقحام نظريات
عربية عنه كانت وليدة ظروف تواريخ شعوب أخرى تمخضت
عنها أحوالهم وظروفهم فلا يمكن أن تفسر الفتوحات
الإسلامية في عهد الراشدين بالتفتيش عن المواد الأولية أو
إيجاد سوق استهلاكية ولا بتحقيق مجد قومي وإن من السذاجة
أو التلفيق التاريخي (Anachronisme) أن نقسم الصحابة
إلى يمينيين ويساريين وإلى أجنحة يسارية معتدلة ومتطرفة .
إن الأساس في الفتوحات وفي تصرفات الراشدين وتفكير
الصحابة المحيطين بهم هو بالدرجة الأولى إيمانهم برسالة الإسلام
وتحقيقها في المجتمعات البشرية وهذا لا يمنع أن تكون لكل
منهم ضمن هذا النطاق آراء خاصة هي نتيجة ظروفهم الخاصة
وتكوينهم الشخصي .

ان تطبيق نظريات حديثة هي وليدة ظروف معينة في
بيئة معينة كالماركسية وغيرها على تاريخنا العربي هو تغيير
لمنطق التاريخ ونحل شخصيات تاريخ ما نفسيات تاريخ آخر
وهو ما سميناه بالتلفيق الزمني أو التاريخي .

ان انطلاقة العرب الكبرى لا تفسر لا بالنسبة للأفراد ولا
بالنسبة إلى جمهور الشعب العربي يومئذ ، لا بدافع اقتصادي
ولا بتغير آلة الانتاج ، ولا بتغير نظام التملك لوسائل الانتاج ،
ولا بدافع المجد القومي وإنما تفسر بالدرجة الأولى (بالإسلام)

الذي آمن به العرب ولا مانع من أن تكون هناك عوامل إضافية مساعدة .

يجب أن تكون الحقيقة الموضوعية أساساً في بيان المفاخر والأجاء والمساوى والأخطاء ولسنا في حاجة بدافع من العصبية القومية إلى انتحال المفاخر فإن في تاريخنا من المآثر الحقيقية ما يغنينا عن ذلك .

إن النظرة القومية الضيقة التي تتجاهل الاتجاه الانساني للقوميات الذي يمثل خط التطور الطبيعي للبشرية . أصبحت نظرة متخلفة في الشعوب الراقية ، وغدا الاتجاه نحو التعايش السلمي ، بل التعاون الانساني هو الاتجاه الذي يمثل التقدم في البشرية ، ولذلك فإن الذين يريدون أن يكتبوا تاريخ العرب بوحى من هذه النظرة القومية الضيقة ، يعملون لعصور انقضت ، ويعاكسون اتجاه التطور السليم ، نحو التقاء الشعوب على صعيد انساني مشترك . دون أن تضيع ذاتيتها وهم كذلك يفرضون على تاريخنا منطقاً غير منطقته بل يقللون من شأن التاريخ العربي الذي كان له دور انساني عام وكانت هذا من أعظم مآثره ومفاخره . وقد بلغ الجهل أو الغرض ببعض من يكتبون في هذه الموضوعات أن يلحوا أن العصر الجاهلي هو عصر الازدهار وقد أسقطوا بذلك أعظم مفاخر العرب أنفسهم في بناء الحضارة الانسانية التي قامت بالإسلام وفي نشر المبادئ الإنسانية التي حملوا رسالتها . وهذا كلام بالاضافة

إلى كونه جهلاً بالحقائق التاريخية ينطوي على لون من الشعبوية هو من أقبح ألوانها حقداً وضلالاً .

ونضيف هنا أن تقليد التاريخ الأوربي تقليداً أعمى أدى بنا أحياناً إلى نقل مشكلات خاصة به وليست هي مشكلات في تاريخنا أو لها شكل آخر ومن أمثلة ذلك الخلط بين النظام الإقطاعي في أوربا وهو نظام حقوقي معترف به يقيم علاقات جائرة بين الفلاح وصاحب الإقطاع وبين الملكية الكبيرة أو الواسعة التي ظهرت في عصورنا التاريخية ، ومنها مشكلة الصراع بين الدين والعلم في أوربا وما شابه ذلك من مشكلات غريبة عنا أو لها وضع آخر .

الشرط الثالث

وهو نتيجة للشرط الثاني . وذلك بأن نضع تاريخنا في موقعه من التواريخ ، وحضارتنا في موقعها من الحضارات ، وإن نقوم تاريخنا لا بمقاييس خاصة بل بمقاييس إنسانية مشتركة ونحن إذا كتبنا تاريخنا على أساس الصيغة الحضارية التي رسمها الإسلام استطعنا أن نقول للبشرية جميعاً أننا حققنا مكاسب إنسانية لا مكاسب قومية خاصة فحسب . فقد حققنا التعاون الثقافي بين شعوب مختلفة وكان لذلك نتائج باهرة وتقدمنا بالفكرة الإنسانية المتحررة من استعلاء الإنسان على الإنسان فرداً أو جماعة أو شعباً ، وترجمناها في مؤسسات اجتماعية وفي تشريع . إن الأساس الذي اقترحناه لكتابة تاريخنا والصيغة

الحضارية التي رأينا أنها تمثل ذاتية هذا التاريخ كما تمثل في الوقت نفسه إنسانية تمتاز بالمزايا الآتية :

١ - أنها تفسر هذا التاريخ العربي تفسيراً سليماً بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي تقدمها لنا ظروف كل حقبة تاريخية .
ذلك أنها تفسره بدوافعه الحقيقية الأساسية وهو شعور العربي أو وعيه للاضطلاع بعبء رسالة إنسانية عامة تتجاوز بساحتها حدود أرضه وقوميته وقد لخصها أحسن تلخيص رسول الجيـش العربي الفاتح إلى قائد الفرس وهو الصحابي ربيع بن عامر إذ قال جواباً على مساومة القائد الفارسي : إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله (وذلك هو تحريرهم من كل عبودية) ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (وذلك هو العدل الاجتماعي) .

٢ - أنها تمدنا بقيم نقوم بها حوادث هذا التاريخ وعصوره وأشخاصه أصلاً وفساداً وبمقاييس قاس بها أسلافنا فعلاً وأعمال الحكام من خلفاء وغيرهم وحكموا عليهم بالاستقامة أو الانحراف بمقدار تحقيقهم لأهداف هذه الحضارة الخيرة الإنسانية أو تجافيتهم عنها . فلم يكن تاريخنا سجلاً لمفاخر أفراد أو أبطال يؤلهون بل سجلاً لصفحات حضارة ولمكاسب إنسانية تتسع دائرتها على الأرض وتشمل شعوباً وجماعات إنسانية ، ولم يكن الأشخاص في ذلك التاريخ إلا منفذين يحكم عليهم بمقاييسه وليسوا هم الحاكمين عليه ، ولذلك كان

بده تدوين هذا التاريخ في تسجيل (الفتوحات) و (الغزوات)
لا في تراجم الملوك أو الخلفاء .

٣ - انها تبرز أعظم ما قدم العرب إلى الإنسانية وهو
ليس ثروة مادية تفتى ، ولكنه لغة ثقافة إنسانية وهي
(العربية) ومبادئ إنسانية تجلت في دين هو (الإسلام)
النبثق عنه تقدم فكري وورقي خلقي ومؤسسات اجتماعية
وحضارة إنسانية .

٤ - انها تحفظ صلاتنا الأخوية الإنسانية بشعوب تعاونت
مع العرب وقبلت حكمهم عن طوعية إيماناً برسالة الإسلام
المشركة وما تضمنته من مثل عليا ، وكانت مشاركة في
الثقافة ومجالات الحياة الأخرى ، ولم تكن مستعمرة ولا
مستعبدة خلافاً لصلات اليونان والرومان مع الشعوب التي
حكموها .

٥ - انها تحل مشكلة وصف الحضارة التي تنسب إلى هذا
التاريخ فإذا اعتبرت لغتها الأساسية وبناتها الأولون فهي
حضارة عربية ، وإذا لوحظت المبادئ التي شيدت عليها فهي
حضارة إسلامية .

٦ - إنه لا ضير فيها في الوقت نفسه على غير المسلمين من
أبناء العروبة ، فالإسلام بهذا المعنى الحضاري هو تراثهم
القومي وثقافته ثقافتهم ، وقد أخذ بهذه النظرة الكتاب
والمفكرون من مسيحيي العرب كالدكتور نقولا زيادة

وفيلكس فارس ، وجورج أنطونيوس ، ونبيه فارس ،
وجميل صليبا وغيرهم فيما كتبوا وألفوا ، وان ولاءهم للحقيقة
وولاءهم لقومهم العرب وتاريخهم ليحملهم على المسير في جادة
الحقيقة الواضحة .

٧ - وعلى هذا فليست إعادة كتابة التاريخ إلا لتحريره
من سطحية عصر الانحطاط ، ومن فقدان الوعي الذاتي ،
ومن دس المؤرخين الأجانب أو جهلهم ، ومن التقليد
الأعجمي للنظريات الأجنبية الغربية ، ولإظهار الاتجاهات
الإنسانية والتقدمية الأصيلة في تاريخنا وليس من أجل أي
تغيير مذهبي .

مصادرنا التاريخية :

إن المكتبة العربية غنية بالمصادر التاريخية وهي كثيرة
ومتنوعة ومتفاوتة في درجة الثقة بها وهي نوعان : كتب
معروفة على أنها كتب تاريخ كآثار الطبري والمسعودي
ومسكويه وابن الأثير وابن كثير وابن الطقطقي وابن خلدون
وكتب المغازي والفتوح كالبلاذري ، وكتب الطبقات والتراجم
وهي كثيرة جداً ، ومنها كتب هي مصادر تاريخية ككتب
الأدب كالعقد الفريد والأغاني وعيون الأخبار وهي كذلك
كثيرة وغنية بمعلوماتها ، وكتب الفتاوى الفقهية ، وكتب
الحسبة والرحلات وغير هذه الأنواع من المؤلفات والآثار التي
لا تحصى ، وهذا النوع من الكتب غير التاريخية في ظاهرها

ربما كان أعظم في قيمته وفي سعة أفقه ومادته من كتب التاريخ نفسها .

أما ما يقال من أن التاريخ المدوّن هو تاريخ الملوك والرؤساء فلا ينطبق على تاريخنا ولو انطبق على كثير من تواريخ الأمم ، فإن أول ما دوّن من التاريخ عندنا لم يكن سيرة أبي بكر وعمر والخلفاء وإنما كان كتب المغازي والفتوح ، فكان اهتمام الناس بما حصل أيام عمر مثلاً من فتوح أو من خطط سياسية أو أقضية أو مشكلات ، ولذلك لم تكن تلك المؤلفات موضوعاً لخدمة الخليفة عمر أو للإشادة به ، بل كانت مشتملة في كثير من الأحيان على ما كان يوجه من نقد للخليفة أو الوالي من قبل الناس ، ولا سيما من أهل الرأي من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة .

وإذا كان قد حصل هذا ففي العصور المتأخرة ولم يعرف تاريخ أمة من الأمم بوضع حكامه وقادته وملوكه على مائدة التشريح وتعريضهم للنقد ابتداءً من الخلفاء الراشدين أنفسهم ، كما عرف تاريخنا وأن كثيراً من الخلافات نشأت بسبب اختلاف آراء الناس في الخلفاء ، وبسبب هذه الحرية الواسعة في النقد .

كما أن المنهج العلمي في تحقيق حوادث التاريخ ونقدها بلغ في تراثنا درجة رائعة لم تبلغها الحضارات السابقة بل الحضارة الحديثة في بعض جوانبها .

المرأة بين حضارتين

إن مشكلة المرأة والأسرة وتوزع الأعمال بين الرجل والمرأة ومسلك كل منهما في الأسرة ، وخارج الأسرة هي في الواقع من أكبر المشكلات التي نواجهها في العصر الحاضر ، والتي تظهر فيها صفة التبعية والتقليد إلى درجة مخزية ، وهي ناحية من نواحي الحياة التي جرفنا فيها تيار جديد أفقدا الكثير من خصائصنا العربية والإسلامية في آن واحد ، وعمّ حتى يكاد يشمل جميع الطبقات ونحتاج إلى ثورة عنيفة عميقة تستمد قوتها من إيماننا بحضارة الإسلام وصحة عقيدته ومثله العليا وأحكامه الأخلاقية لتتحرر من هذه التبعية الشائنة لحضارة الغرب ونظامها الاجتماعي ومفاهيمها وأفكارها .

وأستطيع القول بلا مبالغة ان أكثرية سكان المدن في البلاد العربية والإسلامية عامة ، والريف مقتف أثر المدن ، تعيش في نظام ينتهي إلى الإباحية الجنسية ، ولا يكثر بالنتائج العاجلة والآجلة التي هي اعتبار (حادثة الزنى) أمراً عادياً لا يهز الضمير ولا يثير النخوة ولا يفكك الأسرة

ولا أستثنى من هذا الحكم - وأنا آسف - كثيرين ممن يوصفون
بالتدين ويقيمون شعائر الدين الظاهرة .

وإيضاحاً لهذا الكلام المجمل أقول إن في العالم قديمه
وحديثه المتمدن منه والمتأخر نظامين للحياة الاجتماعية المتعلقة
بالأمرة والمرأة والحياة الجنسية ، أحدهما يقوم على ضرورة
حصر الحياة الجنسية والتمتع بها في نطاق الأسرة أو الحياة
الزوجية وتتفرع عن ذلك جميع العادات المتصلة بحياة المرأة
والرجل ، بحيث تؤدي إلى تلك الغاية وتنسجم معها وتعضدها
فلا إثارة للغريزة في السوق والشارع والمجالس والمجتمعات ،
ولا إثارة للغريزة عن طريق عري المرأة وتزينها وتبرجها ،
ولا فسح المجال للاختلاط المزدوج والخلوات الخاصة ، وكل
ذلك مقترن بآداب وأعراف وتقاليد ومعتقدات وأحكام
خلقية وأحكام تشريعية .

أما النظام الآخر وهو رائج في حضارات أخرى سواء
أكانت قديمة ابتدائية أم حديثة متمدنة - فلا علاقة للحدثة
والقدم ولا للتقدم المادي أو التخلف بذلك - ويقوم هذا
النظام على التساهل في موضوع العلاقات بين الرجل والمرأة
وعدم الاهتمام بحصر الحياة الجنسية وتحقيق متعتها في نطاق
الحياة الزوجية بل يسود الاعتقاد في مثل هذا النظام بجرية
هذه الصلات وعدم التفريق الكبير بين تحقيق الحياة الجنسية
في صورة حياة زوجية أو علاقة زنى .

نعم إن الحياة الزوجية وحياة الأسرة موجودة ولكن لا
يحد أصحاب هذا النظام أمراً كبيراً إذا حدثت صلات جنسية
قائمة بين غير المتزوجين من الرجال والنساء ، وربما أدى الأمر
إلى الاستخفاف بأمر هذه الصلات إذا حدثت من أناس متزوجين
من الرجال أو من النساء ، وواقع البلاد الأوروبية والأمريكية
هو هذا كما هو معروف ومتحقق لدى من أقاموا مدة طويلة
في تلك البلاد ، وهذا لا يمنع أن يوجد فيهم من لا يرضى بهذه
الحال أو من يحتفظ بشيء من العفة والحصانة ، ولكنه قليل
نادر والشائع خلافه ، وفي مثل هذا النظام تنشأ عادات تنسجم
معه ، وتتفرع عنه ، فتزين المرأة في المجتمع والزينة والألبسة
المثيرة لشهوة الرجل واختلاط النساء بالرجال جماعات وفردى
وتنظيم الحياة على أساس إمكان فسح المجال بشكل مشروع
ومنظم لخلوة الرجل بالمرأة مدة طويلة ومتكررة وتأمين هذا
اللقاء وتكرره ، ونشوء الجيل الجديد وخاصة من سن الخامسة
عشرة حتى الخامسة والعشرين ، وفي كل سن بوجه عام ، في
هذا الجو المثير في ظروف لا يسهل فيها الزواج لأسباب اجتماعية
كثيرة ، إن ذلك كله ليس إلا عادات تحقق هذا النظام
وتنسجم معه وتتفرع عنه وتوصله إلى غاياته وأهدافه التي هي
الاباحية في العلاقات الجنسية والشيوع وعدم التخصيص. وينشأ
الأحداث والشبان خاصة وقد تعودوا على الإثارة واستخفوا
بأمر هذه العلاقات واعتادوا ممارستها في أي وقت شاؤوا فلا
يحصنهم زواج ولا تحصرهم أسرة ولا حياة زوجية ، ولا سيما أن

الفردة الواقعة في المجتمع الحديث بين سن البلوغ وسن الزواج أصبحت طويلة تزيد على عشر سنين ، تلك هي الحقيقة التي لا مهرب منها . فنحن بين نظامين : نظام العفة والأسرة والزواج ونظام الاباحية الجنسية ولو وجدت الأسرة . ولكل من هذين النظامين عادات وتقاليد وأفكار وتشريعات وقوانين تنفرع عنه وتنسجم معه . وعلينا ان نختار ولا سبيل الى المزج بين النظامين فإذا أخذنا نظام تزين المرأة وتعريها وتبرجها وتعطرها ونظام المجتمع المختلط في البيوت والأسواق والمدارس والدوائر ونظام المساواة التامة بين أعمال المرأة وأعمال الرجل المؤدية الى هذا الاختلاط والى تسهيله وتسهيل الانفراد والاختلاء فلا يمكن أبداً ان ندعي أننا أخذنا بنظام العفة والحصانة ونظام الأسرة حصراً . وليست القضية كما يزعم أحياناً أنصار كل من النظامين في جزئية من هذه الجزئيات فليس كشف وجه المرأة أو تغطيته هو الفاصل بين النظامين . فتلك نظرة سطحية . ولكن هنالك مجموع عادات وشعارات وتقاليد وتنظيمات تعارن وتتساند وتتجاوب حتى تؤدي الى النتيجة التي هي غاية أحد النظامين . وأحب كذلك ان الفت النظر الى أمر آخر وهو ان الحكم الذي ذكرناه هو الحكم العام أو الغالب . فليس من الضروري ان ينطبق على كل فرد ، فمن الممكن جداً ان يكون في بعض أفراد نظام الاباحية محصنون اعفاء . وفي بعض أفراد نظام العفة متحللون . وليس من الضروري أن يؤدي الأخذ بعادات وتقاليد أحد النظامين الى نتيجته وغايته

حتماً بالنسبة الى كل فرد ، وهذا كما لو قلنا إن الطاعون منتشر
في البلد الفلاني فليس معنى هذا ان كل فرد في ذلك البلد مصاب
به حتماً . ولكن الحكم للغالب والشائع لا للقليل النادر .
ومثال ذلك أننا لو قارنا ولو قايستنا بين منطقة بدوية أوريفية
في بلادنا وحي من أحياء باريز أو واشنطن لوجدنا حتماً ان
نسبة حوادث الزنى أو عدد اللقطاء في البلاد الغربية أكثر
بكثير منها في البلاد الإسلامية .

*

إن مباحث علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأحياء في العصر
الحديث اثارت بعض جوانب مسألة المرأة والأسرة وأظهرت
ضعف كثير من الآراء التي روجت في القرنين الثامن عشر
والتاسع عشر في أوروبا باسم التجدد والحركة النسائية ، وراجت
بعد ذلك ولا تزال في مجتمعا وأبرزت سطحية كثير من هذه
الأفكار وضلالها وخطأها الفاضح .

نجد هذا الاتجاه الجديد في معالجة هذه المشكلة وتحليلها
في ضوء المباحث النفسية والاجتماعية والحيوية عند المفكر
الكبير الدوس هكسلي ، والطبيب الكيماوي ألكسيس كاريل
والكاتب الاجتماعي أندره موروا وغيرهم ، وسأرسم فيما سأكتبه
في كلماتي التالية بعض خطوط هذا الاتجاه ، وأنقل بعض هذه
الأفكار ، لعلها تحرر بعض المفتونين باسم التجدد من سطحتهم

وسيرهم مع القطيع ومجاراتهم للتيار ولو كان منحرفاً ضالاً
طريق الصواب .

*

ان تطور الحضارة وارتقاءها من بعض الجوانب يسير في
اتجاه إظهار الفروق بين الأفراد وازدياد التخصص والتنوع ،
وبالتالي اختلاف توزيع الأعمال بحيث أن المجتمع أي مجتمع كان
كلما كان أرقى كان الأفراد فيه أبعد عن التماثل والتشابه وأقرب
إلى تنوع الشخصية واختلاف الاختصاص بحيث أن تضامن
المجتمع وتكامله ينشأ من اختلاف الصفات والمزايا ، فلكل فرد
مزية ليست في الفرد الآخر وكل واحد يتمم الآخر ويكمّله ،
ولو كنا متماثلين لما احتاج أحدهما للآخر ولا كان مكملًا له
بل مكرراً .

وعلى هذا الأساس العام نفسه يقوم التعاون بين الرجل
والمرأة في المجتمع ، بل أن مبدأ التكامل المتولد عن التنوع
والتخصص أظهر هنا منه في أي مجال آخر . فالبشرية تتكون
من مجموع (أزواج) لا من (أفراد) والمجتمع الذي يتساوى
فيه جميع الأفراد في المزايا والخصائص وفي الخبرة والمعلومات
وبوجه خاص يتساوى فيه الرجل والمرأة في نوع العمل والخبر
هو مجتمع ابتدائي ، وكلما كان التنوع في الخبرة والمزايا والخصائص
واختلاف في الخبرة والمعلومات أكثر وأعمق ، كان ذلك
المجتمع أرقى .

يقول كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) :

« إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية وعن وجود الرحم والحمل او عن اختلاف طريقة التربية وإنما تنشأ عن سبب جد عميق وهو تأثير العضوية بكاملها بالمواد الكيماوية ومفرزات الغدد التناسلية . وإن جهل هذه الوقائع الأساسية هو الذي جعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل بأن كلا الجنسين الذكور والاناث يمكن ان يتلقوا ثقافة واحدة وان يمارسوا أعمالاً متماثلة . والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافاً عميقاً عن الرجل فكل حجيـرة في جسمها تحمل طابع جنسها وكذلك الحال بالنسبة الى أجهزتها العضوية ولا سيما الجهاز العصبي وإن القوانين العضوية (الفيزيولوجية) كقوانين العالم الفلكي لا سبيل الى خرقها ، ومن المستحيل ان نستبدل بها الرغبات الإنسانية ، ونحن مضطرون لقبولها كما هي فالنساء يجب ان ينمى استعداداتهن في اتجاه يعقطن الخاصة دون ان يحاولن تقليد الذكور ، فدورهن في تقدم المدنية أعلى من دور الرجال فلا ينبغي لهن ان يتخلين عنه » .

وقال أيضاً :

« يغفل الناس عادة شأن وظيفة الولادة بالنسبة إلى المرأة مع أن هذه الوظيفة ضرورية لكمال نموها ، ولذلك كان من الحق والسخف صرف المرأة عن الأمومة ، فلا ينبغي أن يتلقى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة ، ولا أن يكون لهم

أسلوب واحد في الحياة ، ولا مثل أعلى واحد ، وعلى المربين أن يعتبروا الفروق الجسمية والعقلية بين الذكر والأنثى ، وما بين دوريهما الطبيعيين . فبين الجنسين فروق لا يمكن أن تزول ، ومن الواجب اعتبارها في بناء العالم المتعدن .

ويقول الدكتور مارانون :

« إن من المحقق أن كمال الإنسانية في حياة الجنس يتم ويجب أن يتم في اتجاه التطوع إلى التنويع أو التفريق الجنسي الآخذ الدقة بأن يصبح الرجل أكثر ما يكون رجلاً والمرأة أكثر ما تكون امرأة^(١) » .

إن الدعوة إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة تؤدي إلى التزاحم والتنافس والصراع بين الجنسين والدعوة إلى التكامل بسبب الاختلاف وانفراد كل جنس بمزايا وخصائص يؤدي إلى التعاون والائتلاف .



إن الأسرة هي مظهر تعاون الجنسين وهي ضرورية لضعف الطفل الإنساني مدة طويلة ، وفي داخل الأسرة يتكون الحب من جانب الأم للطفل والزوج ، ومن جانب الأب للزوجة وللطفل . والأمومة صفة أساسية فطرية في المرأة سواء أكانت

(١) Le Corps et l'âme (الجسم والروح) تأليف الدكتور رونه بيو R. Biot المطبوع في باريز من مجموع Presences .

أما بالفعل أم لم تكن بل سواء أكانت متزوجة أم لم تكن ،
وهي ضرب من الحنان والحب والرعاية تشمر بها المرأة شعوراً
فطرياً . وإذا لم يكن لها ولد انصرف هذا الشعور إلى قريب
تعطف عليه ، بل أحياناً إلى غريب تتخذه ولداً لها .

والأسرة هي البيئة الصالحة الطبيعية المادية والمعنوية
لتكوين العواطف الطبيعية في الإنسان . والمرأة لها فيها دورها
الخاص فهي العنصر الثابت ، والركيزة الدائمة ، وهي المنبع
الطبيعي لعواطف الود والحنان ، في حين أن الرجل هو عامل
الارتباط مع ما هو خارج الأسرة ، مع المجتمع ، وهو الذي
يمارس الصراع في الخارج ، الصراع مع الطبيعة أو مع المجتمع ،
سواء أكان صراعاً مادياً لكسب العيش أو معنوياً في سبيل
عقيدة أو دعوة ، أم كان مجموعاً منها فالرجل تبنى طبيعته
على الصراع القاسي ، والمرأة قوام طبيعتها إشعاع الحب والحنان ،
ولذلك كانت الأسرة أو الزوجة بوجه خاص البيئة التي يجد
فيها أفراد الأسرة من زوج وأولاد السكينة والطمأنينة ويجد
الرجل من تبادل الود ما لا يجده في الخارج .

ذلك هو جوهر الأسرة وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة
(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها
وجعل بينكم مودة ورحمة) .

ومن أروع وأجمل ما قيل في تلخيص وظيفة المرأة الأساسية
الحديث الوارد في الصحيحين (خير نساء ركن الإبل ،

صالح نساء قريش أحناء على ولد في صغره وأرعاه على زوج
في ذات يده) .

إن السكينة أو الطمأنينة ، والمودة والرحمة المتبادلة بين
الزوجين وحنو الأم على الصغير ورعايتها لمال الزوج وبيته
هي العناصر الأساسية التي أوردتها الآية والحديث على أنها قوام
الحياة الزوجية المشتركة بين المرأة والرجل .

*

إن سلامة هذه البيئة الطبيعية التي يتكون فيها الإنسان
تكوناً طبيعياً سليماً وهي الأسرة لا تكون إلا بتقوية أواصر
الأسرة وجعلها المتنفس الطبيعي الوحيد للحياة العاطفية
والجنسية المشتركة سواء بالنسبة للمتزوجين الذين كونوا هذه
الخلية الأساسية أم بالنسبة لغير المتزوجين وإن الخلل إلى المجتمع
يأتي من خرق هذا الجدار ، ومن نشوء علاقات جنسية خارج
الأسرة ومن وراءها وشيوع ذلك سواء بالنسبة إلى حياة ما قبل
الزواج أم بالنسبة إلى فترة الحياة الزوجية هو إضعاف للأسرة
وإفساد لتكوينها ، وخرق لجدرانها وإن المجتمع كل واحد ،
وإن أي حادثة في هذا المجتمع ولا سيما إذا شاعت وأصبحت
ظاهرة عامة في تكوين هذا المجتمع ، تؤثر في كيان الأسر
التي يتكوّن منها ولو لم يكن لهذه الأسر علاقة مباشرة
بالحادثة أو الظاهرة .

إن أخصائياً كبيراً قام بأبحاث هامة وإحصائيات دقيقة

نشرها في كتاب عنوانه « الثقافة والجنس » ونقل عنه المفكر الكبير (الدوس هكسلي) في كتابه « الغايات والوسائل » (١) ، بعض النتائج ووصفه بأنه عظيم وأهم هذه النتائج وجود علاقة عكسية بين النشاط الفكري والاجتماعي والفني من جهة والإباحية الجنسية من جهة أخرى وأنه لا يمكن تلازمها أكثر من جيل ، وأن العفة أو الاحصان شرط ضروري يسبق كل نوع من الحياة الخلقية التي تسمو على الحياة الحيوانية إلى غير ذلك من الأفكار والنتائج الهامة التي هي وليدة أبحاث اجتماعية ودراسات .

*

وإن قيام المجتمع على أساس العفة والاحصان وسلامة الأسرة والحياة الزوجية يستلزم اتخاذ تدابير عملية من جهة ، والقيام بتهديب خلقي من جهة أخرى ، ولا بد من اجتماع الأمرين معاً وهذه التدابير العلمية مبناها على حصر انطلاق الغريزة وإثارتها في نطاق الحياة الزوجية ، والحيلولة دون هذه الإثارة في خارجها ، ومن هنا تنشأ العادات المتعلقة باللباس المحتشم غير المثير وبتحديد الصلة بين الرجال والنساء على أساس عدم الاختلاط في المجالس والبيوت اللهم إلا في حدود ضيقة بعيدة

(١) راجع فصل الأخلاق من كتاب Ends and Means المترجم الى الفرنسية بعنوان *La fin et les moyens* لمؤلفه الفيلسوف الكبير المعاصر Aldous Huxly ولم يترجم هذا الكتاب القيم الى العربية ترجمة كاملة .

عن الأثارة كالبيع والشراء ، والاشتراك في العبادة كالحج
والصلاة ، أو في درس عام مشترك لكل من الجنسين جانب
خاص منه أو ما شابه ذلك ، وهذا ما أخذ به الإسلام من
منع التزين والتبرج في اللباس والزينة ، ومن منع خلوة الرجل
والمرأة ولو من غير زينة ولا تبرج ومنع الاختلاط المطلق ،
وفي غير مناسبات الحاجة والضرورة كالزيارات والسهرات
المشتركة .

ولذلك فإن من الخروج عن جادة الإسلام وعن جادة الاستقامة
والفضيلة في نظر الإسلام ما يفعله الناس اليوم من كشف الرأس
والصدر والساق والذراع ومن تزيين الوجه والتعطر واتخاذ
الألبسة الضيقة وذات الألوان اللافتة للنظر والمثيرة والألبسة
القصيرة ، وما يفعلونه من الشيام بزيارات مختلطة وسهرات
مشتركة ولا سيما مع هذا التزين وبهذه الألبسة هو في نظر
الإسلام من كبائر الآثام ومن المحرمات التي لا يمكن أن تغطيتها
أو تقبل معها صلاة أو دعاء أو حج لأن في ذلك إعلان حرب
على الله ورسوله وعلى الإسلام والقرآن فليتق الله هذا الفريق
من الناس بوجه خاص ممن اتخذوا الإسلام ديناً وآمنوا بالله
وكتابه ورسوله وتقربوا إلى الله بإقامة الصلاة وصيام رمضان ،
وليعيدوا النظر في حياتهم ليسجلوا أنفسهم في سجل الإيمان
والطاعة ، أو في سجل الكفر والمعصية وليصنحوا حياتهم
هذه ولو أدى الأمر لهدم هذه الأسرة القائمة على محاربة الله

ورسوله ، وبناء أسرة غيرها ، أي ولو أدى الأمر إلى مفارقة
الزوجة المصرة على البقاء في نظام الكفر والاباحية من جهة
اللباس والزينة والاختلاط وانه من أشد الناس مؤاخذه في
هذا المجال الشبان الذين نشأوا على التدين ثم هم حين يريدون
أن يتزوجوا يعرضون عن الفتيات المنتهجات نهج الإسلام في
حياتهم ويزنقون زوجاتهم من المعرضات عن خطة الإسلام
ونهجه ، ومن المتحديات لنظام العفة والحشمة والمترينات
المتهرجات ، فهؤلاء الشبان يرتكبون جريمة كبيرة بأحداثهم
روح النعمة على التدين في نفوس المتدينات بإعراضهم عنهن
ويشجعون الفاسد المتنكر للإسلام .

يتبين مما تقدم من أفكار ان موضوع الرجل والمرأة ليس
في اختيار إحدى فكرتين التفضيل أو المساواة ، وإنما هو
موضوع اختلاف في الخصائص يقتضي اختلافاً في التخصيص
والعمل ، ويقتضي توزيع الأعمال بحسب الاستعدادات والخصائص
وذلك ما أخذ به الإسلام فهناك من جهة مساواة كاملة في
الإنسانية وما يتفرع عنه من كرامة أخلاقية وتكليف ومسؤولية
فالنساء شقائق الرجال كما في الحديث والله « خلق لكم من
أنفسكم أزواجاً » و « خلقكم من نفس واحدة » كما ورد في
القرآن الكريم .

وهناك من جهة أخرى تفاوت واختلاف . اختلاف في
التركيب العضوي ، واختلاف في التكوين النفسي ، ينشأ عنها

اختلاف في الصفات والخصائص والمزايا ، وهذا التفاوت في
الخصائص يقتضي توزيع الأعمال في الحياة بين الرجل والمرأة
توزيعاً يتناسب مع هذه الخصائص المتنوعة المختلفة .
وكذلك الناحية الحقوقية فالحق هو ممارسة لوظيفة اجتماعية
وينشأ بنشئها ، ولذلك كانت الحقوق المتعلقة بالصفة الإنسانية
للرجل والمرأة متساوية ، وأما الحقوق المتعلقة بالأعمال الموزعة
بينها توزيعاً متناسباً مع الخصائص فهي كذلك مختلفة ومتناسبة
مع توزيع الأعمال ، وهذه قاعدة مطبقة في المجتمع اليوم
فحقوق الناس تختلف باختلاف مؤهلاتهم المكتسبة ، ومؤهلاتهم
المكتسبة نتيجة لاستعداداتهم الفطرية فحملة الشهادات العليا
من أطباء ومهندسين وحقوقيين ، وحملة الشهادات الثانوية العامة
والمهنية ، وحملة الشهادة الابتدائية كل هؤلاء يشتركون في
الحقوق الإنسانية ولكنهم يتفاوتون في الحقوق الناشئة عن
شهاداتهم ومؤهلاتهم وكفاياتهم العلمية والعملية فليس للطبيب
أن يدافع أمام المحاكم ، ولا للمحامي أن يمارس الطب ، وقد
يعطى للأطباء أو المهندسين أو المحامين حقوق انتخابية في
تكوين بعض المجالس لا تعطى لغيرهم ، كذلك موضوع
الرجال والنساء مساواة إنسانية خلقية معنوية ، وتفاوت
وتنوع في الأعمال وأنواع النشاط تنشأ عنه إنسانية كاملة راقية
متخصصة . هي نوع واحد يتكون من جنسين كلاهما يعمل
لخير النوع كله بتحقيق إمكانيات جنسه ونموه في إطار جنسه
واستعداده ووظيفته .

فكرة التطور

التطور كلمة حديثة العهد في لغتنا وفي اللغات الأخرى ، ومعناها التغير وفقاً لسنة مطردة أو الانتقال في أطوار متعاقبة حسب قانون ثابت ونظام معين . وقد بدت هذه الفكرة عند بعض العلماء في العصور السالفة كابن خلدون الذي استنتج من تطور الأمم من تاريخ حياتها . ولكن هذه الفكرة لم تشع وتنتشر إلا في العصور الأخيرة ولا سيما بعد ظهور نظرية التطور في علم الأحياء (البيولوجيا) ثم عمت هذه النظرية في ميادين أخرى ولا سيما في علم الاجتماع وسائر العلوم الانسانية . وأخذ علماء الاجتماع يبحثون في حياة الانسان الاجتماعية ويستنتجون قوانين تطورها الاقتصادية والفكرية والسياسية والدينية واللغوية والفنية .

وانتقلت هذه النظرية من وسط العلماء والخاصة إلى وسط الجمهور والعامّة فتغيرت بعض معالمها ، وفهمت فهماً آخر شابه كثير من الأخطاء والالتباسات التي سببت إصدار أحكام خاطئة في كثير من المجالات . لذلك كان من الضروري كشف

هذه المفاهيم ، وإزالة ما يقع من التباس وتصحيح الخطأ في تلك الأحكام .

التطور في الطبيعة ينشأ على رأي بعض المتأخرين من العلماء من الملاءمة بين الموجودات ولا سيما الأحياء والبيئة التي تعيش فيها . فإذا تغيرت البيئة كان لا بد من ملاءمة جديدة للكائن ، وهذه الملاءمة باستمرارها تحدث تغيراً فيه وتنقله إلى طور جديد إلى أن يحدث تغير في البيئة ولذلك قد يبقى في طور من أطواره أمداً طويلاً ويكون التطور أكثر ما يكون تغيراً بطيئاً مستمراً تظهر نتائجه بعد زمن طويل . أما إذا كانت الملاءمة بين الكائن والبيئة قائمة فإن هذا الكائن يحافظ على خصائصه ويثبت في أوضاعه . ولذلك كان الثبات سنة من سنن الطبيعة كالتغير ، أو على الأقل الثبات ممدداً وآماداً طويلة وأحياناً دهوراً متطاولة ، فمنذ كم لم يتغير تركيب الماء وكان هو الشراب ، الشراب الأساسي للأحياء ؟ أو لم تبقى المادة الغذائية الأساسية للإنسان هي منذ آلاف السنين ؟ أو لم تبقى الأشجار في أجناسها وأشكال حذوهم وأوراقها ثابتة منذ آلاف السنين ؟

إن الثبات ولا سيما على الأصول سنة من سنن الطبيعة كالتغير والتطور حين ينشأ الموحب للتغير والتبدل . فلاعجب إذا حافظ الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية على ما ثبت صلاحه ونفعه من العادات والنظم والأخلاق .

ومما يلاحظ في الطبيعة أن التطور لا يتجه دوماً نحو الأفضل والأحسن ، ولا يكون دوماً تحسناً وتقدماً بل قد

يكون متجهاً نحو الأسوأ وهو التردّي . ففي عالم الأحياء قد يؤدي تطور بعض أنواعها إلى إنقراضها ، وفي حياة الأمم قد تنتقل الأمة من طور المجد والحضارة إلى طور الانحطاط والضعف والفقر ، سواء في حياتها الفكرية أو الخلقية أو الاقتصادية . فما لا شك فيه أن العرب في صدر الإسلام حتى أوائل العصر العباسي كانوا في طور أرقى وأرفع من الطور الذي مروا به في عصور الانحطاط الأخيرة ، وانهم في عهد ابراهيم كانوا موحدين ثم مرت فترة الوثنية التي سبقت الإسلام . ولذلك كان من الخطأ ظن بعض الناس أن كل تطور حسن وإن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه ، فليس كل حاضر أفضل من الماضي ولا كل مستقبل أفضل من الحاضر . والقضية ليست قضية زمن فقد يكون الماضي أفضل من الحاضر ، كما يمكن أن يكون الحاضر أفضل من الماضي . ومثال ذلك في الفرد أن يكون في حاضره مريضاً بعد أن كان صحيحاً قوياً ، وفي الأمم أن تكون في حالة تفسخ وتأخر وإنحلال وفساد ، بعد أن كانت في فترة من تاريخها قوية متماسكة مرتفعة في تفكيرها وخلقها غنية في اقتصادياتها . ومن هنا نستنتج فكرة هامة تصحح خطأ شائعاً وهي أن الرجوع إلى الماضي يكون سيئاً إذا كان ذلك الماضي سيئاً ، وحسناً إذا كان ذلك الماضي حسناً فليس كل رجوع إلى الماضي مذموماً . فالمرضى يتمنى أن يعود إلى عهد صحته وقوته ورجوع العرب إلى ماضيهم القريب

سيء لأنه عودة إلى عهود انحطاطهم وضعفهم ولكن رجوعهم
إلى عهود مجدهم وازدهار حضارتهم واستمدادهم العناصر
الخالدة والصفات السامية من ذلك الماضي هو أمر محمود ومثله
تخليهم عن الصفات القبيحة التي هي من آثار عهد الاستعمار
والنفوذ الأوربي كشيوع الأنانية والإباحية والاثارة الجنسية ،
إن تخليهم عن هذه الصفات التي لصقت بهم في العصر الحديث
من الأمور المحمودة بل الواجبة مع أنها من الحاضر لا
من الماضي .

ولا شك ان مفهوم العرب القديم للعلاقات الاجتماعية في
التضامن والإيثار والوفاء والمشاركة والأخوة والإنسانية
والشرف والحفاظ على العرض والعفاف والبعد عن الإثارة في
غير طريقها الشرعي الذي هو الزواج ، ان مفهومهم هذا
سواء في العهد الجاهلي أو بعد الإسلام والتزامهم لهذه الأخلاق
السامية أفضل بكثير من سلوكهم ومفهومهم الخلقى في هذا
العصر الذي تأثروا فيه بالحياة الأوربية وما فيها من أثر فردية
ومادية غالبية وإباحية وعدم مبالاة بحفظ الأنساب والأعراض
وسلوك الطرق المؤدية إلى الإثارة الجنسية والخروج بها عن
طريقها الشرعي الطبيعي الذي هو الزواج ، وتظاهر المرأة
بما يتناسب مع هذا المفهوم الإباحي . ان من السطحية وقلة
الثقافة بل من المخالفة لسنن الكون في التطور اعتبار كل رجوع
إلى رجعية مدمومة وهو لا يقل خطأ أيضاً عن اعتبار كل

تمسك بالقديم أو رجوع إلى الماضي مهما كان ، امراً حسناً
وعملاً محموداً .

هذا وإن التطور قد يكون تحسناً في ناحية ووقوفاً أو
تردياً في أخرى فلو نظرنا إلى تطور الحياة الإنسانية في
طورها الأخير لوجدناها من الناحية العقلية والصناعية تفوق
كل الأطوار السابقة على الإطلاق ومن العسير أن نطلق هذا
الحكم على جميع النواحي الأخرى ، بل إن بعض أطوار
البشرية في بعض البلاد كانت أحسن من الوجهة الخلقية في
تعاون البشر وتضامنهم ونمو العواطف الإنسانية فيهم من
العصر الحديث ، وكذلك الفرد الإنساني فقد اكتسب صفات
عقلية ومرونة نفسية في العصور الحديثة لم تكن عنده في
العصور السالفة ، ولكننا أضاع كثيراً مما يمتاز به الإنسان
القديم من قوة المقاومة الجسمية والجلد والصبر والقدرة على
مقاومة عوارض الطبيعة ، بل أضاع كثيراً مما يمتاز به
أحياناً في بعض العصور والمدنيات من نمو الملكات الروحية
والنفسية .

لقد ابتليت بعض العصور بتقديس القديم ولو كان لا
يستحق التقديس ولا التعظيم ، كما ابتليت عصور أخرى بتقديس
الجديد وتعظيمه ولو كان غير جدير بالتعظيم والاستحسان .
والحق أن الخير والحقيقة والجمال هي مقاييس التعظيم والتحقيق ،
ومعايير الأخذ والترك ، وليس التقدم أو التأخر في الزمن .

ومن الواجب على كل حال دراسة اتجاهات التطور في كل ميدان من ميادين الحياة لمعرفة الاتجاه الطبيعي وعوامله وأسبابه ، والاستفادة من هذه المعرفة لحث الخطى والإسراع في السير وحسن الاستفادة من النتائج إذا كان ذلك الاتجاه في نظرنا مفيداً نافعاً ، ولتدارك الأخطار وتخفيف المضار إذا كان ذلك الاتجاه ضاراً .

إن من المفيد جداً أن نعرف اتجاه الصناعة في العالم لنستعد للمرحلة القادمة سواء أكانت نافعة لنا أم ضارة ، وأن نعرف كذلك اتجاه النظم الاقتصادية للبلاد المحيطة بنا ، كما أن من المفيد أن نعرف اتجاه السيل وموعد الفيضان لنستثمر الماء الغزير أو لنندرك الأضرار المرتقبة .

إن الأمة العربية في مرحلة دقيقة من مراحل تطورها يجب فيها بث الوعي الصحيح والتفكير السليم دون الاندفاع في التقليد الأجنبي أو الاستمرار في المألوف من عادات الماضي القريب ففي ما نستقبل من حضارة الغرب نواح جديدة بالأخذ والاقتباس والاستثمار وبعضها يصلح بعد الملاءمة والتكيف ، كما أن فيها ما ينبغي تجنبه ومقاومته ولو وافق هوى في النفوس . كما أن في حضارتنا القديمة وتراثنا وتاريخنا عناصر هامة وصالحة واتجاهات صحيحة وحقائق خالدة ولا سيما في مجال الأخلاق الاجتماعية والفردية وفي مجال العقائد والآراء . يجب أن نفهم التطور فهماً واعياً سليماً لنحسن الاستفادة

من تجارب الأمم وتجاربنا ولنستطيع أن نبني نهضتنا وحضارتنا
الحاضرة والمستقبل بناء سليماً يفيد الانسانية جميعاً .

الإسلام والتطور

نحن نجد القرآن قد أشاد بالعقل ، واحترم أحكامه فيما
يدخل تحت سلطانه ومحاكماته ، وهو حين يلفت نظر الانسان
إلى الحياة وأسرارها ، ويطلب منه أن يتأمل في نفسه وفيما
حوله تأمل باحث مفكر ، إنما يعلن القرآن بذلك ثقته بالعقل
واحترامه له ، وإحلاله ، المحل الأول في استفادة الإنسان من
هذه العوامل كلها . يقول الله تبارك وتعالى « وفي الأرض
آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ .

فنظر العقل إلى أسرار الحياة يقرر حقيقة واضحة : هي
أن الإنسان مهما اكتشف من أسرار الحياة فلن يحيط بها كلها
في عصر واحد ، وستظل تنكشف للناس شيئاً بعد شيء ،
وهذا يستتبع أن الحياة في تطور مستمر ، وكشف عن المجهول
متتابع ، وعلى الإنسان ان لا يقنع بما علم ، وان يعتقد أن
فوق علمه علماً « وفوق كل ذي علم عليم » .

لقد استغلت فكرة التطور أقبح استغلال لمحاربة الأخلاق
القوية وباسم التقدم والتطور ومحاربة الإسلام وتشريع ونظمه
ومثله العليا واستعيرت كلمة الرجعية التي نشأت بعد الثورة
الفرنسية لوصف حركة المناوئين لها — لمحاربة الدين والأخلاق

بوجه عام والاسلام بوجه خاص ان نشر فكرة التطور في مجال الحياة الاجتماعية لتحطيمها والعقائد الدينية لتهديمها عمل من أعمال اليهود وكتائبهم في أوروبا وأمريكا وهدفهم من ذلك أن لا يبقى شيء ثابت في الحياة مطلقاً وبذلك تنقرض الفضائل والحقائق الدينية الكبرى وأهمها الإيمان بالله وبالنبوات وبتعاليمها الأساسية ليبقى اليهود وحدهم مسيطرين على العالم وليكون غيرهم في قلق دائم وثورة عارمة لا تبقي ولا تذر وترد من دراك إلى دراك في مهاوي الانحطاط والرذيلة .

إن في الوجود حقائق كثيرة ثابتة وفي الكون قوانين ثابتة وظواهر مستمرة متعاقبة وفي الحياة اتجاهات أخلاقية ومثل عليها لا تتبدل والدعوة إلى التغير المستمر دعوة يهودية مأكرة يراد بها قلب المجتمعات واحداث القلق ومنع الاستقرار في العالم وهي دعوة منافية للحقيقة ومنافية كدراك للفضيلة والمثل الأعلى وعائقة عن التقدم وهي كالدعوة إلى الثبات في كل شيء فالحياة أقامها الله على سني الثبات والتغير معاً ثبات في نواح وتغير في نواح أخرى .

وقد راعى الإسلام نفسه هذه السنة فثبت ما يجب تثبيته من أفكار وعقائد أو أخلاق ونظم وفسح المجال لتغير الكثير من العبادات وتفاصيل النظم وأشكال الحياة والأفكار المتعلقة بحقائق الكون التي جعل معرفتها منوطة بالعقل والتفكير والتجربة والتأمل .

مذكرة تاريخية

حول التشريع الإسلامي

كان القانون المدني المعمول به في سورية قبل عام ١٩٤٩ هو مجلة الأحكام العدلية التي وضعت في العهد العثماني وأخذت أحكامها من المذهب الحنفي ، وقد عرضت الحكومة في عهد الانتداب الفرنسي في سورية ١٩٣٥ مشروعاً فرنسياً إيطالياً (قانون العقود والموجبات) ليحل محل المجلة كما فعلت في لبنان وألفت لجنة من كبار القانونيين في سورية لقبول المشروع أو رفضه ، وكنا يومئذ طلاباً في السنة الأخيرة من كلية الحقوق.

وكان من حسن الحظ أنني كنت خلال سنوات الدراسة الثلاث في الكلية أتتبع المقارنة بين مجلة الأحكام العدلية والقانون المدني الفرنسي الذي كنا ندرسه أيضاً وكنت إذا وجدت اختلافاً بينهما أرجع إلى المذاهب الفقهية الأخرى لأعرف رأيها وأسجل هذه الآراء وكنت أستعين بكتاب بداية المجتهد لابن رشد والافصاح لابن هبيرة^(١) من كتب الفقه المقارن وبجاشية ابن عابدين في الفقه الحنفي وشرح الخطاب

(١) وهو كتاب لطيف مفيد على صغر حجمه يذكر في كل موضوع ما اتفق فيه أئمة المذاهب الأربعة وما اختلفوا فيه دون ذكر الدليل وهو جزء من كتاب كبير اسمه لإفصاح عن معاني الصحاح وكان الوزير ابن هبيرة مشرفاً على تأليفه الذي كان يقوم به عدد من العلماء وكان قد طبع هذا الجزء لأول مرة الشيخ راغب الطباخ رحمه الله في حلب .

والموافق على خليل في الفقه المالكي وغيرها. فتمكنت بهذه
المادة التي تجمعت خلال السنوات الثلاث أن أكتب هذه
المذكرة (١) التي وقع عليها يومئذ طلاب الحقوق وقدمناها
يومئذ إلى المسؤولين ووزعناها على أعضاء اللجنة ، وكانت
عندهم محل تقدير وكان لها وقع حسن وأثر في النتيجة التي
انتهت إليها اللجنة وهي رفض المشروع .

ثبت هنا هذه المذكرة التاريخية التي كتبت في زمن لم
نكن قد اجتمعت فيه معركة التشريع بين الإسلام والمذاهب
الأجنبية لنبين للناس كيف كان الفكر الإسلامي يتكون
ويختبر في الرؤوس خلال عشرات السنين في هذا العصر
الحديث وكيف أتيح لي ولأمثالي في البلاد الإسلامية أن
يكونوا بفضل الله على الجادة القوية والاتجاه السليم وأن يحاولوا
بعث التشريع الإسلامي متحرراً من عصور الجمود ومن الانسياق
في تيار التقليد الأجنبي .



(١) نشرت هذه المذكرة في جريدة القبس الدمشقية في ٢٠ / ٥ / ١٩٣٥

طلاب الحقوق وقانون الموجبات الجديد

من واجب واضعي القانون أن يتقيدوا بروح التشريع
الإسلامي والاجتهادات المذهبية المستمدة من الشرع تفني
عن قوانين الغرب واجتهاداته .

أشرنا في « قبس » أمس إلى اهتمام طلاب الحقوق بمشروع
قانون الموجبات الجديد الذي بدأت اللجنة الحقوقية الخاصة
بدرسه ، وقلنا إنهم وضعوا تقريراً بشأنه رفعوا صوراً منه
إلى رئاسة الوزارة وأعضاء اللجنة المذكورة ، وهذا أهم ما
جاء في التقرير المذكور^(١).

(١) أثبتنا هنا العنوان كما وضعته جريدة « القبس » في ذلك الحين ،
والمقدمة التي قدمت بها الذكرة أو التقرير الذي رفعه طلاب الحقوق سنة
(١٩٣٥) إلى الجهات المختصة ، وهي الذكرة التي كنت أعدتها ، كما أنني كنت
كتبت بالاشتراك مع الأخ الدكتور معروف الدواليبي ، وكنا يومئذ زملاء
في الدراسة ، بضع عشرة مقالة في نقد قانون العقود والموجبات الذي كان
مطروحاً للنظر باعتباره مشروعاً لقانون مدني سوري ونشرت هذه المقالات
في صيف ١٩٣٥ اثر تخرجنا من كلية الحقوق ، وكان للذكرة والمقالات أثر
كبير لدى اللجنة القانونية المؤلفة يومئذ التي أعطت رأيها في آخر الأمر
برفض المشروع .

القانون لا يفرض فرضاً :

قال الطلاب بعد مقدمة وجيزة :

القانون كما يقول علماء الحقوق وليد العادات ونتيجة الماضي يتأثر بجميع العوامل التي تؤثر في الأمة من عادات عملية وأمور تاريخية وعنصريات سابقة وضرورات آنية ومؤثرات خارجية وغيرها . فالمتشرعون لا يضعون في الحقيقة القانون رضعاً أو يفرضونه فرضاً على الناس فهم عند وضعه يتأثرون بكل هذه العوامل ، ولا سيما هم في الغالب أفراد من تلك الأمة يتأثرون بما تتأثر هي به . وإذا لم يكن القانون ممزجاً بنفسية الأمة ومتصلاً بماضيها ورابطاً به حاضرها ومتلائماً مع عقيدتها وكيانها الخاص فهو عقيم وفاسد ومضر .

فهل هذا القانون الجديد الذي يراد النظر في إقراره أو رفضه أو تعديله مستوف لهذه الشروط وملائم لروح الأمة وسهل الامتزاج بنفسيتها وممكن التطبيق بالسهولة الكافية ، وهل يبقى هذا القانون على صلة الأمة بماضيها التشريعي ويصلح لأن يكون حلقة من سلسلة التطور في تاريخ تشريعها .

التشريع الإسلامي :

لئن جسد التشريع في دور من الأدوار في عهد الدولة العثمانية وحصلت فوضى عظيمة في التشريع لا تزال آثارها

بادية ، فإن فيما وراء هذا الدور أدواراً تشريعية زاهية كان فيها القضاء والتشريع على درجة عظيمة من الرقي والانتظام والاتساع في الاجتهاد والتطبيق تسيره روح العدل والحق ويمتاز بالسهولة والمرونة .

أليس الأجدر إذن بالحكومة اليوم أن تصل تلك السلسلة التي انقطعت فترات من الزمن . وتجمع ما تشتت وتأخذ من ذلك الاجتهاد الواسع وتستمد من مختلف المذاهب الإسلامية ما تقتضي به الحاجة وتوجيه المصلحة . ولها من تلك المذاهب مجال واسع وميدان رحب لا يضيق بها أبداً إذا هي عمدت إلى ذلك وسلكت إليه السبل الموصلة .

قد يظن البعض أن التشريع الإسلامي بأوسع معانيه يضيق ذرعاً بما وسعته القوانين الأوروبية من مختلف الاجتهادات والنظريات . والحقيقة أن هذا الظن مصدره عدم الاطلاع والبحث والتنقيب والمقايسة ، ولو أن امرءاً نظر في بحث من الأبحاث الحقوقية في كل مذهب من مذاهب مجتهدينا وفي مختلف الأقوال والنظريات في المذهب الواحد لخرج من ذلك بمجموعة من النظريات والاجتهادات تكون الاجتهادات والنظريات الغربية الحديثة جزءاً منها .

نعم ان ما فعلته الحكومة العثمانية من الاقتصار على مذهب واحد أو بالأحرى على رأي واحد والتمسك به بصورة مطلقة هو الذي أدى إلى الأخذ بالقوانين الأوروبية فيما مست

الحاجة إلى تغييره أو إلغائه أو إحداثه . ولكن ما الباعث
على الدخول في هذا المأزق الحرج والتضييق على أنفسنا إلى
حد أوصلنا إلى الالتجاء إلى الغير ونحن من أمراً على سعة ولنا
من ثروتنا التشريعية ما فيه الغناء .

أمثلة وبراهين واضحة :

وفي استطاعتنا الآن أن نخرج من البحث المجرد ونضرب
على ما قلناه أمثلة واضحة نبين فيها الحكم في القوانين الغربية .
وفي مختلف المذاهب الإسلامية ونبين أن أكثر ما يعرض لنا
في المجلة أو في المذهب الحنفي بصورة عامة من القضايا المخالفة
في الحكم للتشريع الأفرنسي مثلاً . لا بد أن تجد الحكم فيه
لدى أحد المذاهب الأخرى على الأقل موافقاً للقانون الإفرنسي
إن لم تكن كلها متفقة معه في ذلك . ومع هذا يجب أن
نلاحظ جيداً أن التشريع الغربي ليس هو المثل الأعلى في
التشريع من جهة وليس هو القانون الملائم لنا والموافق لطبيعتنا
من جهة أخرى .

١ - فمن تلك الأمثلة أن اشتراط شرط في عقد البيع
مفيد لأحد العاقدین مفسد للعقد عند الحنفية ، وهو جائز
عند الإمام أحمد بن حنبل ان كانت المنفعة المشروطة مباحة
ومعلومة . كاشتراط البائع سكنى الدار التي باعها مدة معينة
(انظر نيل المآرب شرح دليل الطالب ج ١) وكذا عند

الإمام مالك إن كانت المنفعة المشروطة يسيرة كما لو كانت
سكنى المشروطة في المثال بضعة أشهر . ومن الفقهاء من أجاز
جميع الشروط واعتبرها . وبذلك أخذ ابن أبي شبرمة .

٢ - ومن ذلك أن الإجارة تنفسخ عند الحنفية بموت أحد
العاقدين على ما كان معمولاً به عندنا سابقاً . وهي لا تنفسخ
بذلك عند الأئمة الثلاثة الشافعي ومالك وأحمد (انظر بداية
المجتهد لابن رشد ج ٢ / ص ١٩٢) وهو الموافق للقوانين
الحديثة . وترى في هذا المثال أن الثلاثة متفقون فيه على خلاف
أبي حنيفة .

٣ - ومن ذلك القول بعدم تجزئة الاقرار . كما لو قال
المدعى عليه كان له علي ألف وقضيتها . فقال الإمام أحمد :
القول قوله في الكل فلا يلزمه شيء (الافصاح للوزير ابن
هيرة ص ٢١٢) وذلك خلافاً للحنفية .

٤ - ومن ذلك ان الإعارة عقد غير لازم عند الحنفية
فللمعير الرجوع عنها متى شاء (مجلة مادة ٨٠٦) . وهي في
القانون الافرنسي لازمة فليس للمعير طلب رد العارية قبل
انقضاء الأجل في الاعارة الموقته . وهي كذلك عند الإمام
مالك . فليس للمعير استرجاعها قبل أن ينتفع بها المستعير
وان شرط مدة ما لزمته تلك المدة . وإن لم يشترط مدة
لزمه من المدة ما يرى الناس أنه مدة لتلك العارية (بداية
المجتهد ج ٢ / ص ٢٦٢) .

٥ - ومن ذلك أن الشفعة لا تكون إلا للشريك الخليط أي غير المقاسم فقط عند الشافعي ومالك وأحمد فلا شفعة عندهم للجوار . (انظر بداية المجتهد والافصاح في باب الشفعة) ولم يشترط الإمام مالك طلبها على الفور حق ولا على الحاضر. وفي رواية عنه أنها تسقط بمرور سنة على البيع ، وهذا يوافق ما أخذ به القرار ذو الرقم (٣٣٣٩) في المادة (٢٤٨) منه التي نصت على سقوطها بعد مرور سنة على التسجيل . وقد روي عن الشافعي ان أمدها ثلاثة أيام (بداية المجتهد) وهذا موافق للمادة (٢٤٧) من القرار المذكور التي نصت على سقوط حق الشفعة بعد مرور ثلاثة أيام على التبليغ .

٦ - ومن ذلك قبول شهادة الأخرس بإشارته المعهودة والأعمى في المراثيات -- إذا تحملها بصيراً - وفي الأقوال مطلقاً عند الإمام مالك .

٧ - ومن ذلك أن الإمام أحمد - في إحدى الروايتين عنه - قال : بأن المكيل والموزون إذا غصب وتلف يضمن بقيمته .

٨ - على أن أهم الأمثلة في هذا الباب قانون التجارة وهو مأخوذ عن القانون الافرنسي فالمتأمل في بحث الإفلاس من هذا القانون يجد مشابهة قوية بينه وبين بحث الإفلاس في كتب الفقه على مذهب الإمام مالك . فمن ذلك أن من نتائج الإفلاس عند

المالكية كما هو مسطور في كتبهم منع المفلس من التصرف في
المال الموجود ببيع ماله وقسمته وحبسه إلى ثبوت اعساره
وحلول آجال الديون التي عليه وجواز بيع الديون التي له (ولا
يباع ماله من الدين إلا أن يتفق الغرماء على تركها حتى عند
حلولها) ومن أحكامه أن يدعى الغرماء من قبل القاضي وأن
يعزل القاضي لمن غاب حصته إلى غير ذلك من الأحكام
المشابهة كل المشابهة للقانون المذكور (راجع شرحي الخطاب
والمواق على مختصر خليل ج ٥) .

وفي هذه النبذة الصغيرة من الأمثلة المتنوعة أدلة كافية على
اتساع التشريع الإسلامي واجتهادات مجتهديه وعلى إمكان
الاستمداد منه. ولدينا من الأمثلة والمقارنات الكثيرة ما يؤيد أن
في تشريعنا ما يكفيه مؤنة الإلتجاء إلى تشريعات الأمم
الأخرى ، وما يصلح لأن يكون مصدراً حقوقياً لسائر أمم
الأرض على مختلف درجاتها من الرقي وفي جميع نواحي
التشريع . فعسى أن لا نقع فيما وقعت به الحكومة العثمانية
من الإرتباك والفوضى ، وأن تسرع حكومتنا إلى تلافى ما
فرط في عهد تلك الحكومة فتكلف هذه اللجنة التي عينتها
مع من ترى بهم الخير والكفاءة من كبار فقهاء المذاهب الأربعة
بوضع قانون موافق لروح التشريع الحديث ومستمد من

التشريع الإسلامي . وبذلك تكون قد قامت بأعظم خدمة
لهذه الأمة وأسدت إليها يداً لا يمحي أثرها مدى الدهر ،
وربطت مستقبلها بماضيها ربطاً وثيقاً وأنشأت فيها روحاً
جديداً يحمل في طواياه عوامل الرقي والنهوض إلى استعادة
المجد الثالث وتكوين المجد الطريف .



فهرست

صفحة	
٥	مقدمة
٧	قصة جيل
٢٧	نحو حضارة إنسانية
٣٦	أزمة مجتمعا وأزمة الإنسانية
٥٠	ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد
٩٦	نحو وعي إسلامي جديد
١٣١	المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي
١٥٥	نحو فلسفة إسلامية للتربية
١٦٠	كيف نكتب تاريخنا
١٧٢	المرأة بين حضارتين
١٨٦	فكرة التطور
١٩٤	مذكرة تاريخية حول التشريع الإسلامي ١٩٣٥